

الدكتور
محمود السيد شيخون

للدروس في كلية اللغة العربية — جامعة الأزهر

للسلاوي (الديناني)

نشأته - تطوره - بلاغته

الطبعة الأولى

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

الناشر
مكتبة الكليات الأزهرية

حسين محمد امبابي وأخيه محمد
في شارع الصناديق بالأزهر

تليفون ٩٣١٢٩٦

الدكتور
محمود السيد شيخون
المدرس في كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

لِلدُّسَلْوِي (الذِّبِّي) سَالِي

فَشَائَتِ - تَطَوَّرَ - بَلَغَتْ

الطبعة الأولى

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

الناشر
مكتبة الكليات الأزهرية
٩ ش. الصادقية - الأزهر - القاهرة

تليفون ٩٣١٢٩٦

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

معنى كناية « كناية »

الكناية في اللغة : مصدر كنى يكنى ، فيكون بائى اللام ، أو كنى يكتنو ، فيكون واوى اللام (١) .

والمعنى العام لهذا المصطلح البلاغى : « هو أن تفكلم بشيء ، وتريد غيره » (٢) .

وقد وردت (٣) لها صور بهذا المعنى في القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم « فكلمة « الرفث » لم يرد بها لفظها ، أو المعنى الظاهر لهذا اللفظ ، ومثلها لفظا « الغائط ، والملازمة » في قوله تعالى : « أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء » .

كما وردت في الحديث النبوى الفاظ بهذا المعنى ، أى الدلالة على مستور خفى توحى به اللفظة ، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لغلام أسود اسمه أنجشة كان يحدو بالنساء ركابهن فى بعض أسفاره ، ويرنجز بنسب الشعر والرجز وراء من « رويدك سوفك بالقوارير » فكلمة « القوارير » لم يرد بها لفظها أو المعنى الظاهر لهذا اللفظ ، وإنما أريد بها « النساء »

كما وردت لفظة الكناية ، أو ما يشق منها بهذا المعنى فى شعر الشعراء ، فقال أبو زيد السكاكى :

ولمى لأكنى عن قذور بغيرها وأعرب أحيانا بها فأصارع (٤)

وقال ابن برى : وقد أرسلت فى السر أن قد فضحتنى

وقد نحت باسمى فى النسيب وما تنكى

(١) انظر لسان العرب مادة: كنى ، ٢٠ : ٩٨ ، والقاموس المحيط : ٤ : ٣٨٦ .

(٢) انظر مختار الصحاح مادة كنى ص ٩١ - (٣) كنى الكناية (٤) قذور :

مقدمة

الحمد لله . نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونموذ بأفع من
شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا
هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده
ورسوله ، صلى الله عليه . وعلى آله وصحبه ، ومن اتبع سنته ، واهتدى بهداه
إلى يوم الدين .

أما بعد

فهذه دراسات حول الأسلوب السكفائي قد دفعنى إلى القيام بها أربعة
أمور هى :

١ - الرغبة فى التعرف على تاريخ هذا الأسلوب ، كيف نشأ ؟ وكيف
تطور ؟

٢ - معرفة الشخصيات التى أسهمت فى اكتشاف هذا الأسلوب ،
وكشفت عن جماله ، وأبانت بلاغته .

٣ - الكشف عن اليبئات التى عاش فيها هذا الأسلوب ، والمؤلفات
التي احتوته .

٤ - الكشف عن أسرار البلاغية ، ولطائفة الأدبية .

وبعد طول معاشرة لكتب البلاغية والأدب قديما ، وحديثا ، تمكنت
من أن ألم بأطراف هذا الأسلوب المتشعبة ، وأن أزيح الستار عن بعض أسرار
ولطائفه .

وقد كان سببى فى هذا البحث أننى سلكته فى تمهيد ، وخمسة فصول ،
وخاتمة . أما التمهيد فقد كشفت فيه عن معنى كلمة « كتابة »

وأما الفصول ، فقد تحدثت في الفصل الأول منها عن الكتابة منذ أن كانت صورة في خيال الشعراء ، حتى صارت فنا من فنون البلاغة ، مستعرضا في هذا الفصل جهود علماء البلاغة مناقشا آراءهم ، كاشفا النقاب عن مناهجهم مسجلا ملاحظاتي على دراساتهم .

وتحدثت في الفصل الثاني عن الأسلوب السكتاني في العصر الحديث متتبعا بالبحث والدراسة علماء البلاغة الذين عنوا بهذا الأسلوب ، مزجنا السقار عن جهودهم ، مسجلا ملاحظاتي على دراساتهم .

وتحدثت في الفصل الثالث عن صور الأسلوب السكتاني التي تبلورت عنها جهود علماء البلاغة في نهاية المطاف ، فتناولت هذه الصور بطريقة سهلة بعيدة عن الخلافات التي أطاحت ببهجتها وروائها .

وفي الفصل الرابع تحدثت عن الأثر البلاغي للأسلوب السكتاني ، فكشفت القناع عن بطن ما ينطوي عليه هذا الأسلوب من الأسرار البلاغية ، واللفائف الأدبية .

وفي الفصل الخامس والأخير تحدثت عن الأسلوب السكتاني في القرآن الكريم ، فأعطت اللثام عن خصائصه التي كانت السر في عظمته ، والسبب في جماله ، وخلوده .

أما الخاتمة فقد أثبت فيها النتائج التي انتهت إليها في بحبي هذا والله الكريم أسأل أن يجعل هذه الدراسات خالصة لوجهة الكريم ، خادمة للغة القرآن العظيم ، إنه سميع مجيب ، وهو حسبي ونعم الوكيل ؟

الدكتور

محمود السيد شيخون

الأستاذ المساعد في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

الفصل الأول

الكناية في القديم

لقد عرف القدماء من الشعراء الكناية صورة في خيالهم ، توضح الفكرة ،
وتزين الأسلوب ، ولم يعرفوها لونا بلاغيا محمدا واضحا المعالم بين السمات .

فكفى امرؤ القيس بالبيضة عن المرأة في قوله :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لموها غير معجل

وكفى الثابطة الذياني عن طول العنق وتمام الخلق بقوله :

إذا ارتعت خاف الجبان رعائها ومن يتعلق حيث علق يفرق (١)

وكفى عنبرة العيسى بالشاه عن جاريتة في قوله :

ياشاة ما قدص لمن حلت له حرمت على ولينها لم تحرم

وكفى أوس بن حجر عن الحرب بقوله :

حتى يلف نخيلهم ، ويوتهم لهب كناصرية الحصان الأشقر

وكفى زهير عن طول عنق القرس وقوائمها بقوله :

وما جمنا ما إن ينال قذاله ولا قدماء الأرض إلا أنامله (٢)

وكفى الأعشى عن رقة الخضر وتمام الخلق بقوله :

(١) ارتعت : لبست الرعاش وهو القترط

يلجم نخيلهم

(٢) ملجمنا : يريد الذي

صفر الوشاح ، وملء الدرع خرعية إذا تأتي يكاد الخضر ينخزل (١)
وسار الإسلاميون من الشعراء في نفس الطريق التي سار فيها القدماء إلا
أنهم أكثروا من الكناية ، وتأثروا بصورتها في القرآن الكريم .

الكناية والعبارات الميافية

إن أول من تسكلم عن الكناية كلون بلاغي - فيما أعلم - هو أبو عبيدة
معمر بن النخعي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ وقد فهم منها أنها كل ما فهم من الكلام ومن
السياق ، من غير أن يذكر اسمه صريحاً في العبارة (٢) . ثم كشف النقاب عن
دلالة الكناية على معناها ، وبين أن هذه الدلالة عقلية ، وليست لغوية ، أو
وضعية وفي هذا يقول : « وهذا اللفظ في العبارة لم يوضع في الأصل عند أصحاب
اللغة للدلالة على هذا المعنى ، وإنما فهمت تلك الدلالة من سياق الكلام بشيء
من الروية بوزن عمل العقل (٣) » .

ثم أورد لها شواهد كثيرة منها قوله تعالى : « حتى إذا كتمت في الفلك »
وجرين بهم بريح طيبة ، ثم وضع الكناية في الآية السكرعة بقوله : « إنه
رجوع بن الخطابة إلى الكناية ، والعرب تفعل ذلك ، ومنها قوله تعالى : « الحمد لله
رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد ، وإياك نستعين » ومنها
قوله تعالى : « كل من عليها » كناية عن الأرض ، وقوله تعالى : « حتى
توارت بالحجاب » كناية عن الشمس .

وذكر من شواهد أيضاً قول الفاتحة الذي يأتي :

يادرمية بالعلماء فالسند أقوت وطال عليها صائف الأمد :

وإن من يتأمل هذه الشواهد التي أوردتها أبو عبيدة واستشهد بها على

(١) صفر الوشاح : ضخمه - الخرعية : الرخصة اللينة الحسنة الخلق -
تأتي : ترفق أو تنهيا للقيام - ينخزل : ينثني أو يتقطع .

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ص ١٣٦ (٣) المصدر السابق ص ١٣٦

الكناية كما يراها يدرك أن بعضها يطلق على الكناية في اصطلاح المتأخرين من علماء البلاغة ، وبعضها يطلق على ما يسمى عندهم بالالتفات ، ومن هنا يتضح لنا أن مفهوم الكناية عند أبي عبيدة عام فهو ستر المعنى وراء أى لفظ آخر غير اللفظ الأصيل .

الجاحظ والكناية

ثم تحدث عن الكناية بعد أبي عبيدة « أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ » فأشار إلى أن الكناية ، والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإنصاح والكشف ، ثم أودد للكناية ببعض الشواهد منها قول أبي شريح بن الحارث الكندي : « الحدة كناية عن الجهل » ، وقول أبي عبيدة : « المعارضة كناية عن البذاء (١) » ، ثم قال : « وإذا قالوا فلان مقتصد فتلك كناية عن البخل (٢) »

وبالاحظ على الجاحظ أنه لم يضع تعريفاً للكناية ، وإنما كان حديثه عنها أنه رأى صورة كلامية - كما هي عادته - استتر فيها اللفظ الأصيل الموضوع للمعنى ، وظهر لفظ غيره فأطلق عليها الكناية والتعريض ، كما يلاحظ عليه أيضاً أنه لم يفرق بين الكناية والتعريض والذي يفهم من شواهد التي أوردها للكناية وتعليقه عليها أنه لا يرى فرقا بينهما وأن الاسمين عنده مترادفان .

المبرد والكناية

ثم تحدث عن الكناية بعد الجاحظ « المبرد » المتوفى سنة ٢٨٥ هـ في كتابه « الكامل » (٣) فقسمها إلى ثلاثة أقسام :-

(١) القسم الأول ما كان للتفخيم والتعظيم ومنه اشتقت الكنية ، وهو

(١) انبذاء : كسحاب القدرة على الكلام (٢) البيان والتبيين ص ٢٦٣

(٣) انظر الكامل ص ٢٨ ص ٦

أن يعظم الرجل أن يدعى باسمه ، ووقعت في الكلام على ضربين :
(١) وقعت في الصبي على جهة التناول بأن يكون له ولد ، ويدعى بولده
كناية عن اسمه .

(ب) وفي الكبير ينادى باسم ولده صباه لاسمه .
٢ — القسم الثاني ما كان للتغطية والتعمية كقول ذي الرمة :
أحب المسكان الفقير من أجل أنى به أتقى باسمها غير معجم

٣ — القسم الثالث الرغبة عن اللفظ الخسيس المقعش إلى ما يدل على
معناه من غير .

كقوله تعالى : « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا » أى لغروجهم ، وقوله
تعالى عن المسيح بن مريم وأمه : « كانا يأكلان الطعام » كناية عن قضاء
الحاجة ، وقوله : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » كناية
عن الجماع .

وبلاحظ على المبرد أنه لم يضع تعريفا للكناية ، وبلاحظ عليه أيضا أنه لم
يفرق بينها وبين التعمية ، كما يلاحظ عليه أن تقسيم الكناية إلى الأقسام
الثلاثة السالفة الذكر ليس جيدا ، لأنه لا يرجع إلى تقسيم الجنس إلى أنواعه ،
وإنما هذه الأقسام في الحقيقة ضروب لما تؤدبه الكناية من فائدة في صناعة
الكلام .

ابن المعتز والكناية :

ثم تحدث عن الكناية بعد المبرد « أمير المؤمنين عبد الله بن المعتز »
المتوفى سنة ٢٩٦ هـ في كتابه « البديع » فقد لها فصلا خاصا تحت اسم « الكناية
والتعمية » وأورد لها كثيرا من الشواهد الشعرية منها قول الشاعر في حجام .

أبوك أب مازال للناس موجعا لأعناقهم تقرا كما ينقر الصقر
إذا عوج الكتاب يوما سطورم فليس بمعوج له أبدا سطر

وابن المعتز بعد كلام من السكفاية والتعريض فنا من محسنات الكلام .
ويلاحظ على ابن المعتز أنه لم يفرق بين السكفاية والتعريض ، بل كانت
شواهدهما عنده مختاطة ولعله لا يرى فرقا بينهما شأنه في ذلك شأن من سبقه من
العلماء ، كما يلاحظ عليه أنه لم يضع تعريفا لأحدهما . ومن هنا يتضح لنا أن
ابن المعتز لم يقدم للسكفاية جديدا سوى الإكثار من الشواهد الشعرية .
قدامة بن جعفر والسكفاية .

ثم تحدث عن السكفاية « قدامة بن جعفر » للتوفى سنة ٣٢٧ هـ تحت اسم
« انتلاف اللفظ والمعنى » وصماها « الإرداف » وعرفها بقوله : « أن يريد الشاعر
الدلالة على معنى من المعاني ، فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك للمعنى ، بل بلفظ
يدل على معنى هو ردفه وتابع له ، فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع » (١) .
ثم ساق لها بعض الشواهد الشعرية منها قول الشاعر :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم

وقدامة وإن لم يتكلم - عن السكفاية ، ولم يذكرها في كتابه ، بل تكلم عن
صورة قريبة منها سماها « الإرداف » إلا أن تعريفه لتلك الصورة انبلاغية
قريب جدا من مفهوم السكفاية عند المتأخرين من علماء البلاغة ، وإن بعض
الشواهد التي ساقها للإرداف تصلح أن تكون من شواهد السكفاية عند المتأخرين
من علماء البلاغة ، بل إن بعضهم جعلها من شواهد السكفاية .

أبو هلال العسكري والسكفاية

ثم تحدث عن السكفاية بعد مقدمة « أبو هلال العسكري » للتوفى سنة ٣٩٥ هـ
في كتابه « الصناعتين » تحت اسم « السكفاية والتعريض » فعرفها بقوله :
« وهي أن يكنى عن الشيء ويعرض به ، ولا يصرح على حسب ما عملوا باللائح »

والتورية عن الشيء « (١) ثم استشهد لها من القرآن الكريم بقوله تعالى :
« أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء » فالغائط كناية عن قضاء
الحاجة وملامسة النساء كناية عن الجماع ، ومن أنثر بما فعله العنبري إذ بعث
إلى قومه .

بصرة شوك ، وصرة رمل ، وحنظلة ، يريد جاء تسكم بنو حنظلة في عدد
كثير كثرة الرمل والشوك ومن الشعر بقول الشاعر في حجام .

أبوك أب مازال للناس موجعا لأعناقهم نقرا كما ينقر الصقر
إذا عوج الكقاب يوما سطورهم فليس بمعوج له أبدا سطر

وبلاحظ على أبي هلال في دراسته للكناية أنه ترسم خطا ابن المعتز ، فنقل
تسميته كما هي ، ولم يفرق بين التمريض والكناية على نحو ما فعل ابن المعتز ،
كما أنه استشهد ببعض شواهد .

ابن رشيق القيرواني والكناية

ثم تحدث عن الكناية بعد أبي هلال « ابن رشيق القيرواني » المتوفى
سنة ٤٦٣ في كتابه « العمدة » تحت اسم التورية فقال (٢) : « وأما التورية في
أشعار العرب ، فإنما هي كناية بشجرة أو بيضة أو ناقة أو مهرة أو ما شاء كل ذلك
كقول اللسيب بن علس :

دعا شجر الأرض داعيهم لينصره الصدر والأناب

فكنى بالشجر عن الناس حيث يقال في المنثور أيضا : جاء فلان بالشوك
والشجر ، إذا جاء بجيش عظيم .

(١) الصناعتين ص ١٨٥ (٢) العمدة ١ ص ٢١٥

وقول عنترة : يا شاة ما قنص لمن حلت له حرمت على وليتها لم تحرم
وإنما ذكر امرأة أبيه ، وكان يهواها ، وقيل : بل كانت جاريتها ، فلذلك
حرمها على نفسه .

وقول امرئ القيس :

وبیضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لمو بها غير معجل
فكنى بالبيضة عن المرأة ، وقوله تعالى « إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة »
حيث كنى بالنعجة عن المرأة .

بما سبق يستبين لنا أن ابن رشيق يريد من السكناية معنى عاما هو ستر المعنى
وإخفاؤه وراء لفظ غير لفظه .

ويؤخذ عليه أنه لم يفرق بين السكناية والتعريض شأنه في ذلك شأن غيره
من العلماء الذين سبقوه .

ومن هنا نستطيع أن نقول في اطمئنان إن ابن رشيق لم يقدم للأسلوب
السكنايى جديدا يذكر فلقد ترسم خطأ من سبقه من العلماء ، واختلف معهم في
التسمية فقط .

ابن سنان الخفاجي والسكناية .

ثم تحدث عن السكناية بعد ذلك « ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ هـ
في كتابه « سر القصاحة » تحت « تأليف الكلام ، وجريانه على العرف العربي
الصحيح » فقال (١) : « ومن هذا الجنس حسن السكناية عما يجب أن يكنى عنه
في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح » .

ثم أوردها كثيرا من الشواهد ، وصف بعضها بالحسن دون تعليل ، ووصف
البعض الآخر بالتعجب مبينا السبب في ذلك .

فن الشواهد التي أوردها ووصفها بالحسن والجودة قول امرئ القيس :
فصرنا إلى الحسنى ودق كلامنا ورضت فذات صعبة أى إذلال
ثم كشف عن السكناية في البيت ووصفها بالحسن فقال : « لأنه كنى عن
المباضة بأحسن ما يكون من العبارة » .
وقول أبي الطيب :

تدهى ما ادعيت من ألم الشوق إليها والشوق حيث النحول
ثم علق على البيت بقوله « لأنه كنى عن كذبها فيما ادعته من
شوقها بأحسن كناية ومن شواهد النثر أوردها للسكناية ووصفها بالقبح والرداءة
قول أبي الطيب :

إني على شففى بما فى خمرها لأعف عما فى سراويلاتها
وقول الآخر :

تعطين من رحليك ما تعطى الألف من الرغاب (١)
ثم بين السكناية في البيت بقوله : « يكنى بهذا عن امتلاء رجلها وليتها »
وقول الرضى برثى والدته :

كأن ارتسكاضى فى حشاك مسيبا ركض الغليل عليك فى أحشائى
ثم يعلق على البيت بقوله : « بمعنى أن ارتسكاضه وهو جنين فى بطنها كان
سببا لارتسكاض غليله فى أحشائه لموتها » .

ثم يعلل قبح البيتين فيقول : « لأنك إذا تأملت هذين البيتين وجدتهما
يجريان من بيت امرئ القيس مجرى الضد ، وذلك أن امرأ القيس عبر عما
يجب أن يكنى عنه من المباضة ، فكنى بأحسن كناية ، وهذان عبرا عما لا يجب
أن يكنى عنه فأتيا بالقفاظ يجب أن يكنى عنها (٢) » :

(١) الرغاب : الأرض اللينة الواسعة الدمشية (٢) سر النصاححة ص ١٩٣ - ١٩٥

إن دراسة الخفاجي للكناية دراسة ثمناز بالعمق والتحليل ، فقد جعل
الكناية أصلا من أصول الفصاحة ، وشرطا من شروط البلاغة ، وهذا اتجاه
لم يسبقه إليه أحد من علماء البلاغة كما أنه لم يكتف بإرسال الشواهد ، وبيان
موضع الكناية منها كما فعل غيره من العلماء الذين سبقوه ، بل تعدى هذا إلى
النقد ، فكشف عن الحسن الجيد من الكناية ، وأماط اللثام عن القبيح الرديء
منها ، مبيحا السبب في ذلك ، وهذا أيضا اتجاه قد انفرده به دون غيره ممن سبقه
من العلماء ، وهذه الدراسة التحليلية النقدية الفريدة إن دلت على شيء فلما تدل
على ما يمتاز به الخفاجي من صفاء الذهن ، ورهافة الحس ، ودقة الشعور والخبرة
الواسعة بأساليب اللغة والقدرة على تمييز جيدا الكلام من رديئه ، وغنى من
سميته إلا أنه يؤخذ عليه أنه لم يضع تعريفا للكناية ، كما أنه لم يكشف عن فائدتها
وأثرها في الأسلوب ولم يفرق بينها وبين التعريض ، شأنه في ذلك شأن من
سبقه من العلماء .

عبد القاهر الجرجاني والكناية .

ثم تحدث عن الكناية «عبد القاهر الجرجاني» المتوفى سنة ٤٧١ هـ فأماط اللثام
عن المراد بها فقال :

« والمراد بالكناية هاهنا أن يريد المتكلم إجابات معنى من المعاني فلا يذكره
بالاظن الموضوع له في اللغة ، ولكن يحجىء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود ،
فيؤمى به إليه ، ويجعله دليلا عليه ، كقولهم : هو طويل النجاد ، يريدون طويل
القامة ، وكثير الرماد يعنون كثير القرى » .

والمقابل في هذا النص يدرك أن عبد القاهر أراد أن يبين معناها ، ويضع لها
تعريفا ، ويكشف عن مغزاها فأبان أنها إرادة المعنى بغير لفظه الخاص به ، ولكنه

بذكر معنى آخر من شأنه أن يردف المعنى المراد في الوجود ، وأن يكون إذا كان
أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجم ، وإذا كثر القرى كثر رمد القدر .

ثم وازن عبد القاهر بين الإفصاح والكناية ، ورجح الأخيرة على الإفصاح
فقال : « قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتمريض أوقع
من التصريح ... إلا أن ذلك وإن كان على الجملة فإنه لا تطمئن نفس العاقل في
كل ما يطلب العلم به حتى يبلغ فيه غايته ، وحتى ينفل الفكر إلى زواياه ، وحتى
لا يبقى فيه موضع ومكان مساءلة » (١) ثم أخذ يدل على مزيتها على التصريح
وبتخييل أن سائلا يسأله ، هل زيادة الكناية على التصريح في ذات المعنى أو
في إثباته ؟ فقال : (٢) ليس المعنى إذا قلنا : إن الكناية أبلغ من التصريح
أنك حين كنييت عن المعنى زدت ، في ذاته ، بل المعنى أنك زدت في إثباته ، فجعلته
أبلغ وأكثر وأشد ، فليست الزيادة في قولهم : جم الرمد أنه دل على قرى
أكثر ، بل إنك أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ ، وأوجبته إيجابا هو
أشد ، وادعيته دعوى بها أنطق ، وبصفتها أوثق .

ويفهم من كلام عبد القاهر هذا أن مزية الكناية على التصريح راجعة
إلى إثبات المعنى لا إلى زيادته ، إذ الكناية فيها إثبات للمعنى بالدلائل والبرهان
بخلاف التصريح فإن فيه إثبات للمعنى من غير دليل ، بلا برهان ، وبملاشك فيه
أن إثبات المعنى مصحوبا بالدلائل أبلغ من إثباته عاريا من الدليل .

ثم بين أن الكناية إما أن تكون واقعة في نفس الصفة المراد إثباتها ، وإما
أن تكون لإثبات الصفة ، ومثل للأولى بقول زياد الأعجم .

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشر

ثم علق عليه بقوله : « فإن الشاعر أراد أن يثبت هذه المعاني والأوصاف خلالات المدوح ، وضرائب فيه ، فترك أن يصرح فيقول : « إن الساحة والمروءة والندى لجموعة في ابن الحشرح ، أو متصورة عليه ، أو مختصة به ، وماشا كل ذلك بما هو صريح في إثبات الأوصاف المذكورين بها ، وعدل إلى ما ترى من الكناية والتلويع ، فجعل كونها في القبة المضروبة عليه عبارة عن كونها فيه ، وإشارة إليه ، فخرج كلامه بذلك إلى ما خرج إليه من الجزالة ، ويظهر فيه ما أنت ترى من الفخامة ، ولو أنه أسقط هذه الوسطة من اليبين ، لما كان إلا كلاما غفلا وحديثا ساذجا .

ومثل للثانية بقوله : « المجد بين ثوبيه » « والكرم بين برديه » وعلق عليه بقوله : « لأن قائل هذا يتوصل إلى إثبات المجد والكرم للمدوح بأن يجعلها في ثوبيه الذي يلبس » ثم مثل لها أيضا بقوله أبي نواس :
فما جازه جود ولا حل دونه ولكن يصير الجود حيث يصير

ثم علق على البيت بقوله : « كل ذلك استعملت فيه الكناية لإثبات الصفة للمدوح بإثباتها في المكان الذي يكون فيه ، وإلى لزومها له بلزوم الموضع الذي يحله .

ثم اشترط عبد القاهر لحسن تصوير الكناية وجمالها أن يوجدها فيها التناسب بين ألفاظها ومعانيها ، ثم كشف عن مكان الكناية ، وجملة اللفظ كما جعل الفصاحة فيها عقلية أو معنوية لا لفظية ، وذلك بتقسيمه الكلام الفصيح إلى قسمين :

١ - قسم تعزى المزية فيه إلى اللفظ .

٢ - قسم تعزى فيه المزية إلى المعنى .

وجعل الكناية من القسم الأول .

وحاصل كلام عبد القاهر في هذا المعنى ، أن المعنى السكتاني لا يعرف من لفظ الكلام وإنما يعرف بالنظر اللطيف ، والحس الدقيق ، وذلك مرجعه للعقل .
ولذلك فإننا نراه يبدل على ذلك فيقول : « ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم : « هو كثير رماد القدر » وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القري والضيافة لم تعرف ذلك من اللفظ ، ولكنك عرفت من رجوعك إلى نفسك ، وقولك : إنه كلام قد جاء عنهم في المدح ، ولا معنى للمدح بكثرة الرماد ، فليس إلا أنهم أرادوا أن يدلوا بكثرة الرماد على أنه تنصب القدر الكثيرة ، ويطبخ فيها للقري والضيافة ، فإذا زادت كثرة الطبخ في القدر ، كثر إحراق الحطب ، وإذا كثر إحراق الحطب تحنها ، كثر الرماد لا بحالة » .

ثم كشف عبد القاهر عن بلاغة الكناية وحسن تصويرها ، وبين أنها راجعة إلى طريق إثبات المعنى لا للمعنى نفسه فقال : « فينبغي أن ليس المزاج لهذه الأجناس - الكناية والاستعارة والتخييل والمجاز ، على الكلام المتروك على ظاهره والمباينة التي تحسم في أنفس المعاني التي يقصد للتكلم بخبره إليها ، ولكنها في طريق إثباته لها وتعميره لإدائها (١) » .

ويقول في موضع آخر : « فإنهم (٢) لا يمتنون المعاني التي يقصد للتكلم بخبره إليها كالقري والشجاعة والترادف وإنما يمتنون لإثباتها لما ثبت له ، ويخبر بها عنه ، فإذا جعلوا لها مزية على التصريح ، لم يجعلوا تلك المزية في المعنى المسكتي عنه ، ولكن في إثباته لذى ثبت له ، وذلك أنا نعلم أن المعاني التي يقصد الخبر بها لا تتغير في أنفسها ، بأن يكفى عنها بمعان سواها ويترك

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٤٣ (٢) دلائل الإعجاز ص ٣٤٣ ، ٣٤٤

(٣ م - الأسلوب السكتاني)

الألفاظ التي هي لها في اللغة ، وإنما كان بإثبات شاهدها ودليلها ، وما كان علم على وجودها .

وما الاشتك فيه أن ذلك لا محالة أبلغ من إثباتها بنفسها لأنها على الأول يكون سبيلها سبيل للدعوى يكون معها شاهد

ودراسة عبد القاهر الكفائية دراسة فريدة ، وجديدة ، لم أرها لأحد من السابقين فقد خُطت الكفائية على يديه خطوات واسعة ، فقد عرفها ، وخرج تعريفها وبين فضلها على التصريح ومزيتها على الإفصاح ، ووضع فروعها وأقسامها ، وكشف النقاب عن حسنها وجمالها ، ووضع شروطا لهذا الحسن والجمال ، وبين موضعها ، ونوع دلالتها ، ثم أزاح الستار عن بلاغتها بأسلوب جمع فيه بين الروعة الأدبية ، والدقة العلمية . وقد عالَج كل هذه الجوانب البلاغية معالجة الخبير بأساليب ألفه العرَب المقلِّدون لحلاوتها الألفام لأهدافها ومراميها الواقف على أسرارها ودقائقها ، وقد امتازت دراسته بالعمق والتحليل ، ولأن كث أخذ عليه عدم تبويبها ، ودراستها دراسة منهجية في مكان واحد ، تمكن الباحث أن يضع يده عليها بسهولة ، فلقد تكلم عنها في ستة مواضع في كتابه « دلائل الإعجاز »

أبو يعقوب السكاكي والكناية

ثم تحدث عن الكناية بعد عبد القاهر « أبو يعقوب السكاكي » المتوفى سنة ٦٧٦ هـ في كتابه « المفتاح » تحت الأصل الثالث من علوم البيان فعرفها بقوله (١) : « هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما هو ملزومه ، لينتقل من المذكور إلى المترك كما تقول : زيد طويل النجاد ، فينتقل منه إلى ما هو ملزومه وهو طول القامة »

ثم علل اسبب هذه التسمية فقال : « وسمى هذا النوع كناية لما فيه من إخفاء وجه التصريح ، ودلالة كنى على ذلك لأن : كنى كيفما تركبت دارت مع معنى الخفاء . . . ومنه نكس في العدو ينكس إذا أوصل إليه مضارا من حيث لا يشعر بها ، ومنه نكايات الزمان لمصائبه الملة على بنييه من حيث لا يشعرون »

ثم فرق بين المجاز والكناية من وجهين :

الأول : أن الكناية لا تنافي لإرادة الحقيقة بلغظها فلا يمتنع في قولك :

« فلان طويل النجاد » أن تريد طول نجاده من غير ارتكاب تأويل مع إرادة طول قامته ، والمجاز ينافي ذلك فلا يصح في نحو « رعينا الفيث » أن تريد معنى الفيث ، والمجاز ملازم لفريضة معاندة لإرادة الحقيقة .

الثاني : مبنى الكناية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم ، ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم .

ثم قسم الكناية من حيث المطلوب بها إلى ثلاثة أقسام :

الأول : كناية يطلب بها موصوف ، وجعلها فريضة ، وهي ما يتفق في صفة من الصفات اختصاص بموصوف معين عارض ، فتذكرها متوصلا به إلى ذلك الموصوف كقولك : جاءني المضياف ، وتريد زيدا المعارض من اختصاص المضياف بزيد .

وبعيدة : وهي أن تتكلف اختصاص الكناية بأن تضم إلى لازم آخر ، وآخر حتى تلقى مجموعا وصفيا مانعا من دخول كل ماعدا مقصودك ، مثل أن تقول كناية عن الإنسان : حتى مستوى القامة عريض الأظفار .

الثاني : كناية يطلب بها نفس الصفة ، وجعلها أيضا فريضة ، وهي ما ينتقل

فيها إلى المطلوب من أقرب لوازمه كما تقول : « فلان كثير أضيافه » ، والكتابة التي يطلب بها صفة قد تكون واضحة لا تحتاج إلى تأمل ، وقد تكون خفية تحتاج إلى تأمل ودقة فهم كقولك : « فلان عريض الفقا » كتابة عن البلاهة .
وبعيدة : وهي التي ينتقل فيها من لوازم بواسطة لوازم متسلسلة كقولك : « فلان كثير الرماد » لأنك تنتقل من كثرة الرماد إلى كثرة الحجر ، ومن كثرة الحجر إلى كثرة إحراق الخطب تحت القدور ؛ ومن كثرة إحراق الخطب إلى كثرة الطبخ ، ومن كثرة الطبخ إلى كثرة الأكلة إلى كثرة الضيفان إلى أنه مضياف .

الثالث : كتابة تخصيص الصفة بالموصوف ، وهي أيضا تختلف في اللفظ فتارة تكون لطيفة ؛ وأخرى تكون ألطف .

ثم قسم الكتابة تقسيما آخر باعتبار مفهومها ، فإن كانت عرضيه كقوله تعالى في عرض حال المنافقين « هدى للعتيقين الذين يؤمنون بالغيب » إذ فسر الغيب بالغيبية بمعنى يؤمنون مع الغيبة عن حضرة النبي - ﷺ - أو عن جماعة المسلمين ، على معنى هدى للذين يؤمنون عن إخلاص لا الذين يؤمنون عن اتفاق ، فإن كان التعبير كذلك ؛ وبهذا المعنى كان إطلاق اسم التعريض عليه مناسبا .

وإذا كان التعبير بينه وبين المكنى عنه بعد التوسط عدة لوازم كما في قولك « كثير الرماد » كان إطلاق اسم التلويح عليه مناسبا لأن التلويح هو أن تشير إلى غيرك عن بعد .

وإن كانت المسافة بين الصورة والمكنى عنه قريبة مع شيء من الخفاء كما

في قولك : « عريض القفا ، وعريض الوسادة » كان إطلاق اسم الرمز عليها
مناسبا ، لأن الرمز هو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية قال الشاعر
في هذا المعنى :

رمزت إليها مخافة من يعلمها من غير أن تبدى هناك كلامها

ولم يكن في الصورة شيء من الخفاء كان إطلاق اسم الإيماء والإشارة
عليها مناسبا كقول أبي تمام :

أبين فما يزن سوى كريم وحسبك أن يزن أبا سعيد

فإن الصورة واضحة في التعبير عن كرم أبي سعيد .

وكقول البحتري في التعبير عن جود ابن يحيى وكرمه :

سألت الفدى والجود مالى أراكما تبدلتما ذلا بعز مؤبد

وما بال ركن المجد أسمى مهدهما فقالا : أصفنا بابن يحيى محمد

فقلت : فهلا متما عند موته فقد كفتما عبيديه في كل مشهد

فقالا : أقمنا كي نمزى بفقدته مسافة يوم ثم نتلوه في غد

هذا ما قدمه السكاكي للكتابة في البلاغة العربية .

وإن من يتأمل دراسة السكاكي للكتابة ، يدرك أنها دراسة جافة قامت
على الفلسفة والمنطق ، فقد اعتمد فيها السكاكي على العقل ، وبعد كل البعد عن
الدراسة الأدبية التي تعتمد على الذوق والإحساس ، وتقوم على النقد والتحليل
فقد وجه كل اهتمامه وحرف كل جهده إلى التقسيمات والتفريعات ، وأغرق في
المسائل الفلسفية والقضايا المنطقية ، حتى أصبحت هذه الصورة البيانية الجميلة في
كلامه كأنها قضية منطقية ، أو نظرية هندسية ، أو مسألة حسابية ، تسكد الذهن

وترحق الفكر ، لبس فيها ، يحرك شعورا ، أو يثير عاطفة . وللسكاكي عذره في ذلك ، فلقد تأثر في دراسته للكتابة بتفانيه الفلسفية المنطقية .

ولكننا مع كل هذا لا نجد فضل السكاكي على هذه الصورة البيانية الجميلة فاقدها على يديه بعض الخطوات التي تستحق التسجيل ، فقد عرفنا تعريفًا جامعًا مانعًا ميزها عن غيرها من سائر الصور البيانية ، وإن كان قد تأخر في هذا التعريف عن سبقه من علماء البلاغة ، وبخاصة الإمام عبد القاهر اللجرجاني كما أنه قد فرق بينها وبين المجاز ، وهذا عمل جليل قد انفرد به فلم يسبقه إليه أحد وبذلك نستطيع أن نقول في اطمئنان إن هذه الصورة الجميلة قد تحدثت معالمها وتميزت تميزا كاملا عن غيرها على يد السكاكي . وإن كان قد ظلمها وجار عليها فأفقدنا الكثير من حسناتها وجمالها حين البسها ثوبا قاتما من الفلسفة والمنطق .

ابن الأثير والكتابة

ثم نحدث عن الكتابة بعد ذلك « ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ في كتابه « المثل السائر والجامع الكبير ، فيين أصل اشتقاقها قول : « (١) واعلم بأن الكتابة مشتقة من (٢) الستر يقال : كئيت الشيء إذا سترته ، وأجرى هذا الحكم (٣) في الألفاظ التي يستعمل بها المجاز بالحقيقة فتكون دالة على السائر والمستور معًا .

(١) المثل السائر ج ٣ ص ٥٢

(٢) تعبيره بأنها مشتقة من الستر فيه شيء من التجاوز إذ إنها مشتقة من الكنى

(٣) أى حكم الكتابة

بمعنى الستر

وقيل إنها مشتقة من السكنية التي يقال فيها أبو فلان - أى مامدرت بأب
أو أم - فإذا نادينا رجلا اسمه عبد الله، وله ولد اسمه محمد فقلنا يا أبا محمد كان ذلك
مثل قولنا : يا عبد الله ، فإن شئنا نادينا بهذا ، وإن شئنا نادينا بهذا ، فكلاهما
دال عليه ، وكذلك يجرى الحكم في السكناية ، فإذا شئنا حملناها على جانب
المجاز ، وإن شئنا حملناها على جانب الحقيقة ، إلا أنه لا بد من الوصف الجامع
بينهما اثلا ياتى بالسكناية ما ليس منها ، ألا ترى إلى قوله تعالى : « إن هذا
أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة » فكنى بالنعجة عن النساء (١) ،
والوصف الجامع بينهما هو التأنيث ، ومن أجل هذا لا يلتفت إلى تأويل من
تأول قوله تعالى : « وثيبك قطر » أنه أراد بالثياب القلب على حكم السكناية
لأنه ليس بين الثياب والقلب وصف جامع ، ولو كان بينهما وصف جامع لصح
التأويل .

ثم استدل على اشتقاق السكناية من السكى أو من السكنية بقوله : أما
اشتقاقها من كسيت الشيء إذا سترته ، فإن المستور فيها هو المجاز ، لأن الحقيقة
تفهم أولا ، ويسارع إليهما الفهم قبل المجاز ، لأن دلالة اللفظ عليها دلالة وضعية
وأما المجاز فإنه يفهم بعد فهم الحقيقة ، وإنما يفهم بالنظر والفكر ، ولهذا
يحتاج إلى دليل ، لأنه مدول عن ظاهر اللفظ ، فالحقيقة أظهر والمجاز أخفى ،
وهو مستور بالحقيقة .

وأما اشتقاقها من السكنية ، فلأن عبد الله في الصورة الماضية هو حقيقة هذا
الرجل أى الاسم للوضع إزائه أولا ، وأما أبو محمد فإنه طارى عليه . بعد عبد الله
لأنه لم يكن له ، إلا بعد أن صار له ولد اسمه محمد ، وكذلك السكناية فإن

(١) الأولى أن يقال كنى بالنعجة عن المرأة

الحقيقة لها هي الاسم الموضوع أولا في أصل الوضع ، وأما المجاز فإنه طارىء عليها بعد ذلك ، لأنه فرع ، والفرع يكون بعد الأصل ، وإنما يعد ذلك الفرع للمناسبة الجامعة بينه وبين الأصل .

ثم عرف الكناية بقوله (١) . « وأما الكناية فقيل : هي اللفظ الدال على الشيء على غير الوضع بوصف جامع بين الكناية والمسمى عنه »

ولكن هذا التعريف لم يعجبه فأبطله لجواز أن يكون هذا للتشبيه فإنه اللفظ الدال على غير الوضع الحقيقي لجامع بين المشبه والمشبّه به في وصف من الأوصاف .

ثم أورد تعريفا لعلماء الأصول الذين قالوا (٢) : « الكناية هي اللفظ المحتمل » يريدون بذلك أنها اللفظ الذي يحتمل الدلالة على المعنى وخلافه ، وأبطله أيضا بقوله : ليس كل لفظ يدل على المعنى وخلافه كناية ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم :

« إذا لم تستح فافعل ما شئت » يدل على المعنى وعلى خلافه ، فأحله معنييه : إنك إذا لم يكن لك وازع يزعلك عن الحياء فافعل ما شئت ، والآخر : إذا لم تفعل فعلا يستحي منه فافعل ما شئت ، وهذا ليس من الكناية في شيء ثم عرفها بتعريف ظن أنه جامع مانع فقال (٣) : « وإذا كان الأمر كذلك ، فقد الكناية الجامع لها هو » أنها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز »

(١) المثل السائر ج ٣ ص ٥٠٠

(٢) المثل السائر ج ٣ ص ٣١

(٣) المثل السائر ج ٣ ص ٥٢ تحقيق الدكتورين الحوفي وطبانة

وبالتأمل في هذا التعريف نجد أنه وثيق الصلة بمعنى السكناية في اللغة ، إذ إنها في أصل الوضع أن تنسلكم بشيء ، وتريد غيره ، يقال : كُتبت بكذا عن كذا ، فهي تدل على ما تنسكت به ، وعلى ما أردته في غيره ، وأنها مشتقة من السكتى بمعنى السر

يقال : كُفيت الشيء إذا سترته ، وأجرى هذا الحكم في الألفاظ التي يستر بها المجاز بالحقيقة ، فتسكون دالة على الساتر والمستور معا .

ثم قسم ابن الأثير السكناية من حيث استعمالها إلى :

١ - حسنة : وأورد لها كثيرا من من الشواهد (١) من القرآن والسنة ، ومنثور كلام العرب ومنظومه ومن هذه الشواهد قوله تعالى : « أولا مستم النساء » ثم علق عليه بقوله : « فإنه إن حمل على الجماع كان كناية ، لأنه ستر الجماع بالنظر إلى الذي حقيقته مصافحة الجسد الجسد ، وإن حمل على الملاصقة التي هي مصافحة الجسد الجسد كان حقيقة ، ولم يكن كناية ، وكلاهما يتم به المعنى ، ولهذا ذهب الإمام الشافعي إلى أن اللبس هو مصافحة الجسد الجسد فأوجب الوضوء على الرجل إذا لبس المرأة ، وذلك هو الحقيقة في اللبس وذهب غيره إلى أن المراد باللبس هو الجماع ، وذلك مجاز فيه ، وهو الكناية .

ومن هذه الشواهد أيضا قوله تعالى : « وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها » ثم بين موضع السكناية في الآية السكينة بقوله : « والأرض التي لم تطؤوها كناية عن مناحج النساء »

ومن الشواهد النبوية التي أوردتها قول النبي - صلى الله عليه وسلم -

(١) المثل السائر ص ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ بتحقيق الدكتورين الحوفي وطبانة

(٢) الأحزاب : ٢٧

« رويدك (٢) سوقك بالقوارير » ثم بين موضع الكناية بقوله : « يريد بذلك النساء ، فكفى عنهن بالقوارير »

ومن شواهد النبوية أيضا ما روى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم - فقال يا رسول الله ملكك ، قال وما أهلكك ؟ قال : حوات رحلى البارحة ، قال النبي - صلى الله عليه وسلم - أقبل ، وأدبر ، واتق لدير والحیضة »

ومن شواهد التي أوردتها من المنثور ما روى أن امرأة جاءت لعائشة رضى الله عنها - فقالت لها : أفيد جلى ؟ فقالت عائشة - رضى الله عنها « لا » ثم عاق على الشاهد مبينا مرضع الكناية فقال : « أرادت المرأة أن تضع لزوجها شيئا ينعمه عن غيرها ، أى تربطه أن يأتي غيرها ، فظاهر هذا اللفظ هو تقييد الجميل ، وباطنه ما أرادته المرأة ، وفهمته عائشة »

ومن ذلك ما روى أن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - زوج ولده عبد الله رضى الله عنه فمكثت المرأة عنده ثلاث ليال لم يذن منها ، وإنما كان مانعا إلى صلاته ، فدخل عمرو بعد ثلاث ، فقال : كيف ترين بعلك ؟ فقالت نعم فلبعل إلا أنه لم يفتش لنا كففا ، ولا قرب لنا مضجعا .

ثم بين ابن الأثير الكناية في قول المرأة ووصفها بالحسن والجودة فقال :

(٣) قاله النبي صلى الله عليه وسلم لعلام أ- ود اسمها بحشة كان يجذب النساء وركابهن في بعض أسفاره ويرتجز بنسيب الشعر والرجز وراهن ، فأمره بالكف عن نسيبه وحملاته حذار صبوتهن إلى غير الجميل ، وقيل إن الإبل إذا سمعت الحذاء أسرع في السير واشتدت فأزعجت الراكب فاتعبته فنهاه عن ذلك لأن النساء يضعفن عن شدة الحركة ، لسان العرب مادة قرر والنهاية لابن الأثير ج ٢ ص ٢٤٠

فقولها « لم يفش لنا كنفنا ، ولا قرب لنا مضجعا » من الكناية الغراء الظاهرة .
ومن أمثال العرب التي أوردناها ، واستشهد بها على الكناية قولهم : « إياك
وعقيلة الملح » ثم بين الكناية في المثل بقوله : « وذلك كناية عن المرأة الحسنة
في منبت السوء فإن عقيدة الملح هي المأثومة تكون في البحر فهي حسنة ، وموضعها
ملح »

وقولهم : لبس له جلد النمر « كناية عن العداوة .
ومن شواهد التي أوردناها من المنظوم قول أبي تمام في قصيدته التي يستعطف
بها مالك بن طوق على قومه والتي مطلعها :
« أرض مصردة ، وأرض منجم (١) »

مالى رأيت نرا بكم ببس للثرى مالى أرى أطوادكم تنهدم
ثم بين الكناية في البيت بقوله : « ببس الثرى كناية عن تنكروا ذات البين
تقول : ببس الثرى بينى وبين فلان ، إذا تنكر الود الذى بينك وبينه ، وكذلك
تنهدم الأطواد ، فإنه كناية عن خفة الخلوم ، وطيش العقول »

وقول أبى الطيب المتنبي في قصيدته التي يعاتب فيها سيف الدولة بن حمدان
التي مطلعها : « واعر قلباه بمن قلبه شيم »

وشر ما فنصته راحتي فنص شهب البزاة سواء فيه والرخم
ثم علق على البيت بقوله : « يشير بذلك إلى أن سيف الدولة يستوى في
المثال منه هو وغيره ، فهو البازي ، وغيره الرخمة .

(١) مصردة : قليلة الوى والمطر - منجم : يدوم عليها المطر .

٢ — قبيحة ، وأورد لها كثيرا من الشواهد (١)

ثم أشار إلى أن السكناية وردت في غير اللغة العربية فقال (٢) : « ووجدتها في اللغة السريانية ، فإن الإنجيل الذي في أيدي النصارى قد أتى منها بالكثير ، وما وجدته في السكناية في لغة الفوس أنه كان رجل من أسورة (٣) كسرى ، وخواصه ، فقيل له : إن الملك يختلف إلى امرأتك ، فمجرها ذلك وترك فراشا فأخبرت كسرى فدعاه وقال له : قد بلغتني أن لك عينا عذبة وأنت لا تشرب منها فما سبب ذلك ؟ قال أيها الملك بلغني أن الأسد يردّها ففخته فاستحسن كسرى منه هذا الكلام ، وأجزل عطاه »

ثم تحدث عن التعريض ، وفرق بينه وبين السكناية فقال : « وأما للتعريض فهو الدال على الشيء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقي والمجازي ، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعرفة بغير طلب : والله إني لمتاج ، وليس في يدي شيء ، وأنا عريان ، والبرد قد آذاني ، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب ، وليس هذا اللفظ موضوعا في مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازا ، إنما دل عليه من طريق المفهوم بخلاف دلالة السكناية في أية صورة مما مضى ويؤكد هذه التفرقة بقوله أيضا . « (١) والتعريض أخفى من السكناية ، لأن دلالة السكناية لفظية وضعية من جهة المجاز ، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا بالمجازي ، ثم علل لسبب تسميته بالتعريض فقال :

(١) المثل السائر ج ٣ ص ٧ وما بعدها (٢) المثل سائل ج ٣ ص ٧٥

(٣) الأسورة جمع أسوار بضم الهمزة وكسرهما : وهو القائد من الفرس أو هو الفارس

(٤) المثل السائر ج ٣ ص ٥٧ .

« وإنما سمي التعريض لأن المعنى فيه يفهم من عرضه أى جانبه - وعرض الشيء جانبه -

ثم استرسل في توضيح الفرق بين السكناية والتعريض فقال : « كما أن السكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً ، فتأتى على هذا تارة ، وعلى هذا أخرى ، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب ، ولا يأتى من اللفظ المفرد أبته ، والدليل على ذلك أنه لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ، ولا من جهة المجاز ، وإنما يفهم من جهة البلوغ والإشارة ، وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد ، ولكنه يحتاج في الدلالة عليه إلى اللفظ المركب »

وبالتأمل في كلام ابن الأثير نستطيع أن نقول في إيجاز إن الفرق بين السكناية والتعريض عند ابن الأثير يتلخص في ثلاثة أمور :

١ - التعريض اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقي والمجازى والسكناية كل لفظة ذات معنى يجوز حملها على جانبى الحقيقة والمجاز ، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز .

٢ - دلالة السكناية لفظية وضعية من جهة المجاز ، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ، ولا المجازى ، لأن المعنى فيه يفهم من عرضه أى من جانبه .

٣ - السكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً ، فتأتى على هذا تارة ، وعلى هذا أخرى ، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب ، ولا يأتى في اللفظ المفرد أبته .

هذا ما قدمه ابن الأثير للسكناية في البلاغة العربية ، ولقد اتجه في دراسته

لما اتجاها أدبيا ، اعتمد فيه على ذوقه وحسه ، فأكثر من الشواهد الأدبية ، وخرجها تخریجا حسنا ، وحلها تحلیلا جمیلا ، جمع فيه بين الروعة الأدبية ، والدقة العلمية ، وبين الحسن منها ، والقبیح ، مع الإقلال من القواعد ، والابتعاد عن الإغراق في التفسيرات والتفريعات وبذلك نستطيع أن نقول إن ابن الأثير قد وضع أسس اتجاه جديد في البلاغة في زمن اتجهت فيه البلاغة على يد السكاكي إلى التعميد والتثنية والإغراق في التفسيرات والتفريعات .

كما امتازت دراسته للكتابة بالإحاطة والشمول ، فلم يكتف بدراستها في اللغة العربية كما فعل غيره من العلماء السابقين ، بل تعدى هذا إلى دراستها في اللغة السريانية والفارسية وإن كنت آخذ عليه أنه لم يكشف القناع عن بلاغة الكفاية ، ولم يحدثنا عن أثرها في الأساليب العربية .

ابن أبي الأصمب والكفاية

ثم تحدث عن الكفاية « ابن أبي الأصمب المعري » المتوفى سنة ٦٥٤ هـ في كتابه « تحرير التعبير ، وبديع القرآن » فعرّفها بقوله : « هي عبارة عن تعبير المتكلم عن المعنى القبيح باللفظ الحسن وعن النجس بالطاهر ، وعن الفاحش بالعفيف (١) » هذا إذا قصد المتكلم نزاهة كلامه عن المييب ، وقد يقصد بالكفاية غير ذلك ، وهو أن يعبر عن الصعب بالسهل ، وعن البسط بالإيجاز ، أو يأتي للتعمية والإلغاز ، أو للستر والصيانة » ثم أورد لها كثيرا من الشواهد من القرآن ، والحديث ، وجيد الشعر للجاهليين والمحدثين مخرجا تلك الشواهد ، مبينا موضع الشاهد فيها .

ومن شواهد التي أوردها قوله تعالى : « كَانَا يَا كِلَانِ الطَّعَامِ » ثم بين
الكناية في الآية الكريمة بقوله : « كناية عن الحدث لأنه ملازم أكل
الطعام (١) » .

وقوله تعالى : « أَوْ جَاءَ أَحَدُ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ » ثم علق على الآية بقوله :
« لأنه (٢) » المنخفض من الأرض الذي يقصد لقضاء الحاجة . فسمى الحدث
باسم موضعه »

وقوله تعالى : « وَلَكِنْ لَا تَوَاعَدُ وَهْنٌ مُرَأً » كناية عن الجماع ، وقوله
تعالى : « وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ » كناية عن المباشرة .

ودراسة ابن أبي الإصبع المصري للكناية دراسة جديدة وفريدة ، فهي
دراسة أدبية رائعة جميلة ، تهدف إلى الكشف عن الفوائد الأدبية التي تسكن
في الصور البلاغية ، فإن ابن أبي الإصبع درس الكناية على أنها صورة أدبية ،
وطريق من طرق التعبير الفني الجميل التي يسلكها الأديب للتعبير عما يحول
في نفسه من المعاني ، ويبحث في صدره من الخواطر ، وقد استطاع بمهارته
الأدبية ودقته الفنية أن يكشف القناع عن فوائد الكناية ، وحصرها فيما
يلي : -

١ - التعبير عن المعنى القبيح باللفظ الحسن

٢ - التعبير عن النجس بالطاهر ، وعن الفاحش بالعفيف

٣ - التعبير عن الصعب بالسهل

٤ - الإيجاز

٥ - السر والصيانة

٦ - التعمية والإغاز

والمعجب أن هذه الدارسة الأدبية الرائعة التي أتجه إليها ابن أبي الإصبع تأتي في وقت قد أتجهت فيه البلاغة على يد السكاكي إلى التعميد والتفنيد، ولكن لا غرابة ولا عجب أن يتجه ابن أبي الإصبع إلى هذه الدارسة، فهو أديب مطبوع، وناقد فذ، قد حباه الله ذوقاً رقيقاً، وذهناً صافياً، وحساً مرهفاً، وخيالاً خصباً، كما أنه نشأ في البيئة المصرية الجميلة الساحرة، ولتي خلّت أرضها الطيبة من الفلسفة والمنطق.

وهذا الانجاء الأدبي، وإن كان قد وضع أسسه ابن الأثير كما سبق أن أشرنا إلى ذلك أثناء حديثنا عن الكناية عند ابن الأثير، إلا أن ابن أبي الإصبع لم يقف عند حد الأسس التي وضعها ابن الأثير، بل تعدى ذلك إلى شيء جديد هو الكشف عن الفوائد الأدبية التي تكمن في الصور البلاغية، وهذا لا يكشف الجديد قد غاب عن ابن الأثير، وتوصل إليه ابن أبي الإصبع وانفرده به فهو من جديده الذي لم يسبق إليه.

هو الدين بن عبد السلام والكناية.

ثم تحدث عن الكناية الشيخ عز الدين بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠ هـ في كتابه «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز» فقال (١): «النوع

(١) انظر ص ٨٥ من كتاب الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز

السادس عشر الكنايات كما جاء في قول لأحمدى للنسوة في حديث أم زرع « زوجي رفيع العماد ، طويل النجاد ، عظيم الرماد ، قريب البيت من النار »

ثم أخذ في بيان الكنايات في الحديث فقال : « كنت برفعة حماده عن شرفه ومغزاته ، لأن من طالت قامته طل نجاد سيفه ، وكنت بعظم رماده عن كثرة ضيافته ، وإطاماه ، لأن الرماد لا يعظم إلا عن كثرة الطبخ والإحراق لا عطب لا كثير ، وكنت بقرب بيته من المجلس عن كرمه لأن البخلاء كانوا يبعدون بيوتهم عن المجلس كيلا يستقيمون الأضياف منه وكانوا ينزلون في المواضع المنخفضة كيلا يراهم الضيفان فيأتونهم ، ولذلك قال طرفه :

واست بجلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرقد (٢)

ثم بين أن الكناية ليست من المجاز فقال : « والظاهر أن الكناية ليست من المجاز لأنها (٢) استعملت اللفظ فيما وضع له ، وأرادت به الدلالة على غيره ولم تخرجه عن أن يكون مستعملا فيما وضع له ، وهذا شبيه بدليل الخطاب في مثل قوله تعالى : « فلا تفل لها أف » وفي مثل نهيه عن النضحية بالموراه والمرجاء »

ودراسة الشيخ عز الدين بن عبد السلام لا كناية تسير في نفس الانحاء الأدبي الذي وضع أسسه ابن الأثير ، ونماه ، وجدد فيه ابن أبي الإصبع المصري فقد أورد حديث أم زرع وكشف عما فيه من الكنايات بأسلوب جمع فيه بين الروعة الأدبية والدقة العلمية . إلا أنني أخذ عليه أنه لم يضع تعريفا للكناية

(٢) التلاع : جمع تلة ، وهي من الأضداد يطلق على الارتفاع والانخفاض

(٣) أي أم زرع .

تتميز به عن غيرها من الصور البلاغية كما أنه لم يحدثنا عن فوائد السكناية كما فعل ابن أبي الإصبع المصري من قبله كما أخذ عليه قلة الشواهد الأدبية فقد اكتفى بمحدث أم زرع وكنت انتظر منه وهو الأديب الأريب وللعالم المدقق والناقد الخبير أن يكثر من الشواهد الأدبية وأن يتناولها بالنقد والتحليل مبينا ما فيها من الجودة والحسن أو الرداءة والقبح معللا أسباب ذلك .

النويزى والسكناية .

ثم تحدث عن السكناية بعد الشيخ عز الدين بن عبد السلام «النويزى» (١) المتوفى سنة ٧٣٣ هـ في كتابه «نهاية الأرب» فعرّفها بقوله (٢) : « أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ للموضوع له في اللغة ، ولما كان يحى إلى معنى هو نأيه وردفه في الوجود ، فيؤمى به إليه ، ويجعله دليلا عليه ، ثم أورد لها بعض الشواهد الأدبية من القرآن الكريم والشعر ، ومن الشواهد التي أوردتها قوله تعالى : « إن الذين كفروا بعد إيمانهم ، ثم ازدادوا كفرا ، لن تقبل توبتهم ثم كشف عن السكناية في الآية الكريمة بقوله : « كفى بنفى قبول التوبة عن الموت على الكفر »

ومن الشواهد الشعرية التي أوردتها قول الشاعر :

بعيدة مهوى القرط إما النوفل أبوها وإما عيد شمس وهاشم

ثم بين موضع السكناية في البيت بقوله : « أراد أن يذكر جيدها ، فأتى

(١) هو الإمام البحامة شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد عبد الدايم البكرى التيمى القرشى المعروف بالنويزى المولود بقوص سنة ٦٧٧ هـ والمتوفى بالقاهرة سنة ٧٣٣ هـ

(٢) نهاية الأرب ج ٧ ص ٥٩

بتابعه ، وهو بعد مهوى القرط »

ومن شواهد الشعرية أيضا قول ليلي الأخيلية :

ومحرق عنه القميص نخاله وسط البيوت من الحياء سقيا

ثم بين السكناية في البيت بقوله : « كنت عن جوده بمحرق القميص من جذب العفاة له عند ازدحامهم لأخذ العطاء »

ثم ذكر أن السكناية قد تكون في اللثب كما في الأمثلة السابقة ، وقد تكون في الإثبات ثم عرف السكناية في الإثبات بقوله : « وهى ما إذا حاولوا إثبات معنى من المعانى لشيء فيتركون لتصریح بإثباته له ، ويشبتونه لما له به تعلق » ثم مثل لها بقولهم : « المجد بين ثوبه ، » « كرم بين برديه » وقول زياد الأعجم :

لن المروءة والسماحة والفدى فى قبة ضربت على ابن الحشرج

ثم بين أن السكناية ليست من المجاز فقال (١) : « واعلم أن السكناية ليست من المجاز لأنك تعتبر فى ألفاظ السكناية معانيها الأصلية ، وتفيد بمعناها معنى ثانيا هو المقصود فتريد بقولك : كثير الرماد حقيقة ، وتعمل ذلك دليلا على كونه جوادا ، فالسكناية ذكر الرديف ، وإرادة المردوف »

ثم فرق بينهما وبين التعريض بأن التعريض : تضمين ، الكلام دلالة ليس لها ذكر كمثلك : « ما أقبح البخل » لمن تعرض ببخله (٢) والنويرى فى دراسته للسكناية قد تأثر بالشيوخ عبد القاهر الجرجاني ، وتعرفه

للكناية هو تعريف عبد القاهر ، وشواهد هي شواهد ، كما تأثر في دراسته أيضا بالشيخ عز الدين بن عبد السلام ، فقد نفي أن تكون الكناية من المجاز متابعا في ذلك الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وقد عال نفي المجاز عنها بنفس التعامل الذي ذكره عز الدين بن عبد السلام مع الاختلاف في الصياغة وبذلك نستطيع أن نقول إن الفريرى لم يصف إلى الكناية جديدا يذكر فقد ترسم خطأ الشيخين عبد القاهر الجرجاني وعز الدين بن عبد السلام وإن أخذ عليه قلة الشواهد الأدبية مع أنه أديب ذواق قد منحه الله ذوقا رقيقا ، وذهنا صافيا ، كما أخذ عليه عدم تعليقه على بعض الشواهد التي أوردها ، وعدم تناوله هذه الشواهد بالتفرد والتحليل .

الخطيب القزويني والكناية

ثم تحدث عن الكناية « الخطيب القزويني » المتوفى سنة ٧٣٩ هـ في كتابه « الإيضاح » فعرّفها بقوله (١) : « الكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ »

ثم فرق بينها وبين المجاز ، بأن الكناية يحوز فيها إرادة المعنى مع إرادة لازمة ، والمجاز لا يحوز فيه ذلك ، لأنه ملزوم قرينة معاندة لإرادة الحقيقة ، وملزوم معاند الشيء معاند لذلك الشيء ، فلا يصح في قولنا : في البيت أسد « أن نريد معنى الأسد من غير تناول .

ثم قسم الكناية بحسب المطلوب بها إلى ثلاثة أقسام : —

١ — قسم يطلب به موصوف

(١) انظر ص ٢٣١ من كتاب الإيضاح

٢ - قسم يطلب به صفة

٣ - قسم يطلب به نسبة

ثم قسم كل نوع إلى قريب وبعيد

وقد ترسم في هذا التقسيم خطا السكاكى .

ودراسة الخطيب القزوينى للكناية تسير فى الاتجاه الذى رسمه السكاكى ،
والذى مزق به أوصال البلاغة العربىة ، وسلمها حسننها وجمالها ، وأفقدناها ماها
ورواها فهو لم يزد فى دراسته للكناية عما قاله السكاكى ، ولم يقدم جديدا
يستحق الذكر والتسجيل

العلوى والكناية :

ثم تحدث عن الكناية بعد الخطيب القزوينى « أمير المؤمنين يحى بن
حمزة بن على بن إبراهيم العلوى اليمى » المتوفى سنة ٧٤٩هـ ، فى كتابه « الطراز
المتضمن لأسرار البلاغة ، وعلوم حقائق التنزيل » فأماط اللثام عن منزلتها
فى البيان العربى فقال : « اعلم أن الكناية واد من أودية البلاغة وركن من
أركان المجاز (١) »

ثم كشف عن حقيقتها فى لسان أهل اللغة فقال : « الكناية مصدر كنى
بكنى وكنيته تسمى كنيته حسنة ، ولأما واو ، وياء . يقال : كناه بكنيته ،
ويكنوه (٢) »

ثم كشف أيضا عن حقيقتها فى لسان أهل اللغة فقال : « الكناية

مقولة على ما يتكلم به الإنسان ويريد به غيره » وأنشد الجوهري لأبي زياد :

وإني لأكنو عن قدور بغيرها وأعرب أحيانا بها فأصارع

والسكنية بالضم ، والسكر في فائها ، واحدة السكنى ، واشتقاقها من
الستر يقال : كئيت الشيء . إذا سترته ، وإنما أجرى هذا الاسم على هذا
النوع من الكلام لأنه يستر معنى ، ويظهر غيره (١) »

ثم كشف عن حقيقتها عند علماء البيان فذكر تعريفاتهم ، ونقشها مناقشة
الأدب المتذوق والعالم المدقق ، فذكر تعريف الشيخ عبد القاهر لها وهو أن
يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن
يحيى إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود ، فيسمى به إليه ، ويجعله دليلاً
عليه »

وبين أنه فاسد لأمر ثلاثة :

١- الأمر الأول : أن قوله « تاليه » إما أن يريد به مثله فهو خطأ فإن
السكنية ليست بمائلة لما كان من اللفظ الذي ترك بالسكنية ، وإما أن يريد
معنى آخر فيجب ذكره حتى ينظر فيه إما بصحة أو فساد .

٢- الأمر الثاني : أن قوله : « فيسمى به » ليس بخلو الإيحاء إما أن
يكون على جهة الحقيقة أو على جهة المجاز ، فلفظه الإيحاء محتمل لما ذكرناه ،
وليس في الإيحاء إشارة إلى أحد الوجهين ، فلا بد من بيان أحدهما ، وإلا كان
كلاماً مجملاً لا يفيد فائدة وهو بجانب صناعة الحدود .

٣- الأمر الثالث : أن هذا التعريف ليس مانعا ، لأنه يدخل الاستعارة في الكناية لأن قولك : « رأيت أسدا ولقيت بحرا » قد تركت فيه اللفظ الموضوع للشجاعة والكرم ، وأثبتت بهما ، وأومات إليه (١) »

ثم ذكر تعريف ابن الأثير الذي حكاه عن بعض علماء البيان ، وارتضاه وهو « اللفظ الدال على الشيء بغير الوضع الحقيقي بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه » وأبطله بثلاثة أمور :

١- الأمر الأول : أن هذا يبطل بالتشبيه فإنه اللفظ الدال على غير الوضع الحقيقي في وصف من الأوصاف كنولنا : « كأن زيدا الأسد » فأدخل فيه ما ليس منه .

٢- الأمر الثاني : أن الكناية لا تنفقر إلى جامع ، فإننا إذا قلنا : « فلان كثير رماد القدر » وجعلنا هذا دلالة على كونه كريما ، فهو غير محتاج إلى ذكر جامع ، فاعتبار ذكر الجامع في الكناية يخرجها عن حقيقة وصفها ، ويبطل فائدتها .

٣- الأمر الثالث : أنه ذكر الكناية والمكنى عنه في حد الكناية ، وهذا فيه تفسير الشيء بنفسه ، وإحالة بأحد الجملتين على الآخر فهو باطل (٢) .

ثم ذكر تعريف ابن سراج المالكي في كتابه المصباح وهو ترك التصريح بالشيء إلى مساويه في اللزوم لينتقل منه إلى المزوم »

(١) الطراز ص ٣٦٧

(٢) الطراز ص ٣٦٩

وبين وجه فساد بأميرين :-

١- الأول : أن ما ذكره حاصل في الاستمارة في نحو قولك : « رأيت الأسد واقعت البحر » فإنك تركت التصريح بقولك : « لقيني الشجاع » إلى لفظ « الأسد » والكريم إلى لفظ « البحر » والسكينة مخالفة للاستمارة في ماهيتها ، فلا يخلط أحدهما بالآخر .

٢ - الثاني : أن قوله : « إلى مساوية في الزوم لينتقل منه إلى المزوم » إن أراد بالمزوم ، المدلول فذكر المدلول أوضح ، فلا حاجة إلى العدول عنه ، وإن أراد به معنى آخر غير المدلول فهو خطأ ، لا فائدة فيه لأنه لا مشاركة بينهما ، إلا في مدلولها لا غير ، ولهذا كان كناية عنه . ثم التمس له العذر لأنه كان مولما بممارسة المنطق ، ومما لجنه فقلبت عليه عباراته (١) .

ثم ذكر تعريف حكاية ابن الأثير عن بعض الأصوليين وهو « لها اللفظ الذي يحتمل الدلالة على المعنى وعلى خلافه »

وبين فساد بأميرين :

١ - الأول : أن ما قاله يبطل باللفظ المشترك في نحو قولك : « قرء ، وشفق » فإن كل واحد منهما دال على معنى ، وعلى خلافه .

٢ - الثاني : أن ما ذكره يبطل بالحقيقة والجاز ، فإن قولنا « أسد وبحر » كما يدل على ما وضع له بالحقيقة فهو دال على ما استعمل فيه من الجاز فيلزم أن يسكون ما ذكرناه من الكناية وهو باطل (٢) .

(١) الطراز ص ٢٧٠

(٢) الطراز ص ٢٧١

ثم ذكر تعريف ابن الخطيب الرازي في كتابه « نهاية الإيجاز » وهو
« اللفظ الدال على معنى مقصود مع ملاحظة معناه الأصلي » .

وأبطله بأمرين : -

١ - الأول : أنه فاسد بالاستعارة ، فإنها دالة على معنى مقصود مع ملاحظة
معناه الأصلي ، فيلزم على ما قاله دخولها في الكناية .

٢ - الثاني : أنه يبطل بالحقيقة مع مجازها ، فإنه ما من مجاز يدل على
معنى ، إلا وهو دال على حقيقته ، وفي هذا دخول أنواع
المجاز في الكناية وهذا باطل (١)

ثم ذكر تعريف ابن الأثير نفسه وهو « كل لفظ دال على معنى ، يجوز
حملة على جانبي الحقيقة والمجاز ، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز » .

وأظهر فساد بثلاثة أمور :

١ - الأول : أن قوله : « معنى يجوز حملة على جانبي الحقيقة والمجاز »
خطأ لأن المعنى الواحد ، لا يجوز أن يكون حقيقة ،
ومجازاً ، لاجتماع النفي والإثبات فيه ، لأنه يصير حقيقة ، ليس حقيقة ، وهو
باطل ، بل الحق في الكناية أنهما معنيان ، أحدهما حقيقة ، والآخر مجاز
وظاهر كلامه أنها معنى واحد .

٢ - الثاني : أن ما ذكره يبطل بالاستعارة في مثل قولنا : « فلان أسد ،
ويحمر » فإن قولنا : أسد كما يدل بحقيقته على السبع ، فهو دال بمجازه على

الشجاعة فيجب دخوله في حد الكفاية .

٣ - الثالث : أن قوله : « بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز » يدخل فيه التشبيه فإنه لا بد فيه من اعتبار أمر جامع بخلاف الكفاية ، فإنها لا تنفرد إلى ذكر الجامع ، فاعتبار قيد الوصف الجامع بدخلها في التشبيه ، ويخرجها عن حقيقتها (١) .

ثم عرف الكفاية بقوله : (٢) : « هي اللفظ الدال على معنيين مختلفين حقيقة ومجازا من غير واسطة لا على جهة التصريح » .

ثم شرح التعريف فقال : « فقولنا : « اللفظ الدال » يحترز به عن التعريض فإنه ليس مدلولاً عليه باللفظ ، وإنما هو مفهوم من جهة الإشارة والفحوى ، وقولنا : « على معنيين » يحترز به عما يدل على معنى واحد ، فإنه ليس كفاية ، وبدخل فيه اللفظ المتواطىء كرجل وفرس ، واللفظ المشترك كقولنا : « قرء وشفق » فإنها دالان على معنيين ، وقولنا : « مختلفين » يخرج عنه المتواطىء ، فإن دلالاته على أمور متماثلة ، وقولنا : « حقيقة ومجازا » يحترز به عن اللفظ المشترك ، فإن دلالاته على ما يدل عليه من المعاني على جهة الحقيقة لا غير ، وقولنا : « من غير واسطة » يحترز به عن التشبيه ، فإنه لا بد فيه من أداة التشبيه إما ظاهرة وإما مضمرة ، وقولنا : « على جهة التصريح » يحترز به عن الاستعارة فإن دلالاتها على ما يدل عليه من جهة صريحها ، إما من غير قرينة ، كدلالة الأسد على الحيوان ، وإما مع القرينة كدلالة الأسد على الشجاع ، فكلاهما مفهوم من جهة التصريح بخلاف الكفاية ، فإن الجامع ليس صريحاً من قوله تعالى :

(١) الطراز ص ٣٧٣ .

(٢) الطراز ص ٣٧٤ .

« فأتوا حرثكم ، وإنما هو مفهوم على جهة التبع .

ثم فرق بين الكناية والاستعارة بثلاثة أمور (١) :

١ - الأمر الأول : الاستعارة عامة ، والكناية خاصة ، فكل استعارة كناية ، وليس كل كناية استعارة .

٢ - الأمر الثاني : الكناية يتجازها أصلان ، حقيقة ومجاز ، وتكون دالة عليهما معاً عند الإطلاق ، بخلاف الاستعارة ،

فإن لفظ « الأسد » يستعمل في « السبع » فيكون دالا عليه ، ثم يستعمل في « الشجاع » فيكون دالا عليه ، فأما الكناية فهي دالة على الحقيقة والمجاز جميعاً عند الإطلاق .

٣ - الأمر الثالث : أن لفظ الاستعارة صريح ، ودالاتها على ما تدل عليه من الحقيقة والمجاز على جهة التصريح ، بخلاف الكناية فإن دالاتها على معناها المجازي ليس من جهة التصريح ، بل من جهة الكناية .

ثم فرق بين الكناية والتعريض من أوجه ثلاثة (٢) :

١ - الوجه الأول : أن الكناية واقعة في المجاز ومعدودة منه ، بخلاف التعريض فلا يعد منه ، وذلك من أجل كون التعريض مفهوماً من جهة القرينة ، فلا تعلق له باللفظ ، لا من جهة حقيقة ، ولا من مجاز .

٢ - الوجه الثاني : أن الكناية تقع في المفرد والمركب ، بخلاف التعريض فإنه لا موقع له في باب اللفظ المفرد .

(١) الطراز ص ٣٧٨ - ٣٧٩ .

(٢) الطراز ص ٣٩٧ - ٣٩٨ .

٣ - الوجه الثالث : أن التعريض أخفى من الكناية ، لأن دلالة الكناية مدلول عايتها من جهة اللفظ بطريق المجاز ، بخلاف التعريض فإن دلالاته من جهة القربة والإشارة ، ولا شك أن كل ما كان اللفظ يدل عليه فهو أوضح مما يدل عليه باللفظ ، وإن علم بدلالة أخرى .

ثم استدل على الفرق الثالث بماورد عن علماء الشريعة في التفرقة بين صريح القذف وكنايته وتعريضه ، فقال : « ومن أجل هذا فرق علماء الشريعة بين صريح القذف وكنايته وتعريضه ، فأوجبوا في الصريح من القذف الحد مطلقا في قولك : يا زاني وأوجبوا في كنايته الحد إذا نوى به في مثل قولك : يا فاعلا بأمة ، ويأفعلولا به ولم يوجبوا في التعريض الحد في مثل قولك : «يا ولد الحلال» وماذاك إلا لأجل أن التعريض والكناية يدلان على القذف من جهة اللفظ إما بالحقيقة أو بالمجاز .

ثم أورد للكناية كثيرا من الشواهد من القرآن الكريم والسنة النبوية ، ومنثور كلام العرب ومنظومه ، وبين ما تشتمل عليه هذه الشواهد من الكنايات وحللها تحليلا أدبيا رائعا (١) ، يدل على معرفة تامة بالأساليب العربية ، وخبرة واسعة بأسرار الكلام ودقائقه ، وأهدافه ومقاصده .

إلا أنني لاحظت عليه أن أكثر شواهد قد نقلها من المثل السائر لابن الأثير .

ودراسة العلوي للكناية دراسة تمتاز بالإحاطة والشمول ، وتقوم على العقل ، وتعتمد في أغلب الأحيان على الفلسفة والمنطق ، فقد اطلع على جهود القدماء ،

(١) انظر الطراز من ص ٤٠٠ إلى ص ٤٢٦

تم تداولها بالنقد الفلسفى المنطقى ، ثم أدلى بدلوها فى النهاية ، فوضع للكفاية تعريفا جامعاً مانعاً ، يدل على تمكنه من المنطق ، وخبرة التامة بمحدوده ورسومه وقضاياها ، ثم فرق بين الكفاية والاستعارة ، وهذا من جديد الذى لم يسبق إليه ، فلم نر أحداً من القدماء قد تعرض للفرق بينهما ، وإن كانت للفروق التى ذكرها تبدو عليها الصيغة المذهبية الفلسفية ، ثم فرق بين الكفاية والتعريض ، وقد سبه إلى ذلك ضياء الدين بن الأثير كما أشرت إلى ذلك أثناء حديثي عن الكفاية عند ابن الأثير .

وإن من يتأمل دراسة العلوى للكفاية يرى أنها لاتسير فى الاتجاه الأدبى الخالص ولا الكلامى ، البحث ، ولكنها تسير فى اتجاه جديد يمزج فيه الاتجاهان الأدبى والكلامى ، وإن كان المذهب الكلامى أكثر وضوحاً فى دأسته من المذهب الأدبى . فقد ركز كل اهتمامه على نقد تعريفات السابقين ، وأهل الفاحية الجمالية .

وبذلك نستطيع أن نقول إن الجديد الذى قدمه العلوى للكفاية ينحصر فيما يلى :

١ - الفرق بين الكفاية وبين الاستعارة .

٢ - وضع تعريف جديد للكفاية يختلف عن تعريفات السابقين ، ويميزها تمييزاً تاماً عن جميع ما عداها من من الصور البلاغية .

٣ - الاتجاه الذى سلكه فى دراستها اتجاه يكاد يكون جديداً فهو مزيج من الاتجاهين الأدبى والكلامى .

ويؤخذ عليه أنه لم يبين لنا الحسن منها والقبيح والجيد والرديء ، بل

اكتفى بنقل شواهد ابن الأثير التي أوردها في كتابه المنل السائر ولم يعلق عليها
أربنذاولها بالتعليل والنقد الأدبي ، كذلك يؤخذ عليه أن تعريفه الذي ذكره
في النهاية وإن كان جامعاً مانعاً ، إلا أنه أهمل أثر العاطفة في رسم الصورة
الجمالية للكناية .

الزركشي والكناية :

ثم نحدث عن الكناية « الزركشي » المتوفى سنة ٧٩٤ هـ في كتابه « البرهان
في (١) علوم القرآن » يذكر أنها عند علماء البيان « أن يريد المتكلم إثبات معنى
من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له من اللغة ، ولكن يحىء إلى معنى
هو تاليه وردفه في الوجود ، فيسمى به إليه ، ويجعله دليلاً عليه ، فيدل على
المراد من طريق أولى » .

ثم ذكر أقوال العلماء في أنها حقيقة أو مجاز فقال : « قال الطرسوسى (٢)
في العمدة : « قد اختلف في وجود الكناية في القرآن ، وهو كالتخلاف في
المجاز ، فنأجاز وجود المجاز فيه أجاز الكناية ، وهو قول الجمهور ، ومن
أنكر ذلك أنكر هذا »

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : « اظاهر أنها ليست بمجاز ، لأنك
استعملت اللفظ فيما وضع له ، وأردت به الدلالة على غيره ، ولم تخرجه عن أن
يكون مستعملاً فيما وضع له ، وهذا شبيه بدليل الخطاب في مثل قوله تعالى :
« فلا تقل لهما أف » .

(١) انظر ص ٣٠١ من ٢ من وكتاب البرهان في علوم القرآن
(٢) هو نجم الدين إبراهيم ابن علي الطرسوسى المتوفى سنة ٧٥٨ هـ ذكره
صاحب كشف الظنون .

ثم ذكر أسباب (٣) الكناية ، وأجلها فيما يلي : —

١ — التنبيه على عظم القدرة كقوله تعالى : « مر اتدي خلفكم من نفس واحدة » كناية عن آدم عليه السلام .

٢ — فطنة المخاطب كقوله تعالى في قصة داود عليه السلام : « خصمه ان ينفي بعضنا على بعض » فكنى داود بحصم على لسان ملوكين تمرضاً ، وقوله تعالى في قصة النبي ﷺ ، وزيد « ما كان محمداً أباً أحد من رجالكم » كنى « زيد » ولكن رسول الله « وقوله تعالى . « فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة » فإنه كناية عن ألا تعاندوا عند ظهور المعجزة ، فتمسك هذه النار العظيمة .

٣ — ترك اللفظ إلى ما هو أجل منه كقوله تعالى : « إن هذا أخى له سمع وتسعين نعمة ؛ ولي نعمة واحدة » فكنى بالنعمة تدفع المرأة ، كمادة العرب في أنها تكنى بها عن المرأة وقوله تعالى : « إلا متحرفاً لقتال أو متجهزاً إلى فئة » كنى بالتحيز عن الهزيمة ، وقوله تعالى : « إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم » كنى بغير قبول التوبة عن الموت على الكفر لأنه برادفه .

٤ — أن يفحش ذكره في السمع فيكنى عنه بما لا ينور عنه لاطبع كقوله تعالى : « وإذ أمروا بالانقياد لكرام » أى كنوا عن لفظه ، ولم يورد له على صيغته ، وقوله تعالى : « ولست كن لا تواعدوهن سرا » فكنى عن الجماع بالمر .

ثم علق على الآية السكرية مبيها الحكمة والطائفة في الكناية عن الجماع

بالسر فقال : « وفيه لطيفة أخرى لأنه (١) يكون من الآدميين في السر غالباً ولا يسره ما عدا الآدميين إلا للفراب ، فإنه يسره ، ويمسكي أن بعض الأدباء ، أمر إلى أبي حاتم كلاماً فقال : « ليكن عندك أخفى من سفاد الفراب ، ومن الزام في كلام الأئمة » فقال : « نعم يا سيدنا ، ومن ليله القدر ، وعلم الغيب (٢) »

وقوله تعالى : « فالآن باثروهن » فكفى بالمباشرة عن الجماع لما فيه من إلتقاء البشريتين ، وقوله تعالى : « من لباس لکم وأنتم لباس لمن » واللباس من الملابس وهي الاختلاط والجماع ، وقوله تعالى : « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه » كناية عما تطلب المرأة من الرجل ، وقوله تعالى : « وقالوا للجلودهم شهدتم علينا » أي لقروهم ، فكفى عنها بالجلود ، وقوله تعالى فجعلهم كعصف ما كول ، كفى به عن مصيرهم إلى العذرة ، فإن الورق إذا أكل انتهى حاله إلى ذلك ، وقوله تعالى : « الخبيثات للغيبيات » يريد « الزناة » وقوله تعالى : « ولا يأتين بيوتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن » فإنه كناية عن الزنا ، وقيل أراد طرح الولد على زوجها من غيره ، لأن بطنها بين يديها وأرجلها وقت الحمل .

• — تحسين اللفظ كقوله تعالى : « بيض مسكونون » فإن العرب كانت من عادتهم الكناية عن حرائر النساء بالبيض ، قال امرؤ القيس :
وبيضة خدر لا يرام خباؤها : تمتعت من لوبها غير معجل .

٦ — قصد للبلاغة كقوله تعالى : « أو من ينشأ في الخلية وهو في انحصام

(١) أي الجماع .

(٢) انظر تعليقتنا على الكناية في الآية الكريمة في كتابنا ، الإعجاز في نظم

غير مبين ، فإنه ضيعانه كنى عن النساء بأنهن ينشأن في الترفه والتزين والتشاغل عن النظر في الأمور ودقائق المعاني ، ولو آتى بلفظ النساء لم يشعر بذلك ، والمراد نفي ذلك « أعنى الأنوثة » عن الملائكة ، وكونهم بنات الله تعالى الله عن ذلك .

٧ — قصد المبالغة في التشنيع كقوله تعالى حكاية عن اليهود - لعنهم الله - « وقالت اليهود يد الله مغلولة » فإن الغل كناية عن البخل « وقوله تعالى : « بل يدها مبسوطتان » كناية عن كرمه .

ثم أشار إلى لطيفة في الآية الكريمة ، لا يدركها إلا أصحاب الأذواق السليمة العالمون بأساليب اللغة العربية ، الواقفون على دقائقها وأسرارها الفاهمون لأهدافها ومقاصدها ، المتذوقون لحلاوتها فقال : « وفي اليد وإن أفردت في الآية ليكون أبلغ في السخاء والجود »

٨ — التنبيه على مصيره كقوله تعالى : « تبث يدا أبي لهب » أي جهنمي مصيره إلى اللهب ، وقوله تعالى : « حمالة الحطب » أي غامة ، ومصيرها إلى أن تكون حطباً أجهنم .

هذا ما قدمه الزركش - رحمه الله - للكناية ، وإن من يتأمل حديثه عن الكناية يرى أنه سلك في دراستها الاتجاه الأدبي ، فكشف القناع عن أسبابها في القرآن الكريم بأسلوب أدبي رائع ، وبطريقة سهلة ميسورة لا تكدر لذهن ، ولا ترهق الفكر ، فهو يذكّر السبب ثم يورده الكثير من الشواهد القرآنية ثم يبين موضع الكناية فيها ، وفي بعض الأحيان يتعرض لبعض اللطائف الأدبية التي تسكن في الكناية .

وهو في دراسته للكناية قد تأثر بمن سبقه من العلماء ، وبخاصة الشيخ عبد القاهر الجرجاني والأديب الكبير ابن أبي الإصبع المصري ، فتعريفه للكناية هو تعريف الشيخ عبد القاهر ، والأسباب التي ذكرها قد سبقه إليها ابن الإصبع في كتابه « بديع القرآن » إلا أن الزركشي قد توسع فيها ، وأتى لها بالكثير من الشواهد القرآنية .

وقد امتازت دراسته للكناية بالإحاطة والشمول ، فقد ذكر أقوال العلماء في كونها حقيقة أو مجاز إلا أنه لم ينصح عن رأيه في النهاية وهذا مما يؤخذ عليه وامتازت دراسته أيضاً بالدقة والأمانة العلمية فهو يعترف بأنه استفاد من العلماء الذين سبقوه ، وينسب الأقوال إلى أصحابها فيقول عند تعريفه للكناية: هي عند علماء البيان . . . إلخ ويقول في معرض حديثه عن الكناية هل هي حقيقة أو مجاز : قال الطرسوسي . . . وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وينقل كلامهم بصدق وأمانة .

ونستطيع أن نجمل الجديد الذي قدمه الزركشي للكناية فيما يلي : —

١ — التوسع في ذكر أسبابها في القرآن الكريم .

٢ — الإكثار من الشواهد القرآنية .

ويؤخذ عليه أنه لم يكشف لنا عن بلاغة الكناية ، ولم يحدثنا عن أثرها في الأساليب العربية ، وإن كانت الأسباب التي ذكرها فيها إشارة إلى هذا الأثر .

كما يؤخذ عليه أيضاً أنه لم يفرق بين الكناية والتعريض ، ولكن من يتأمل حديثه عن الكناية ، وتعليقه على بعض شواهدا يتبين له أنه لا يرى فرقاً

بينهما ، بل هو يجعل التعريض قسما من أقسام الكناية ، ولونا من ألوانها ،
يتضح هذا من تعليقه على قوله تعالى « خصان بني بعضنا على بعض » فقد قال
معلقاً عن هذه الآية مبيناً موضع الكناية فيها : « فكأن داود يخصم على لسان
ملكين تعريضاً » فتعليقه هذا يستفاد منه أن التعريض قسم من أقسام الكناية
وهو في هذا يتابع السكاكي في جملة التعريض قسما من أقسام الكناية ، كما يؤخذ
عليه أنه ذكر أقوال العلماء في الكناية هل حقيقة أو مجاز ، ولم يوضح عن رأيه ،
وهذا يتناقض وطبيعة الباحث المتمق ، فهمة الباحث لا تقف عند حد الجمع والنقل
بل تعدى هذا إلى الدراسة الواعية المستفيضة ، والمناقشة العلمية الهادفة المنصرفة ،
والخروج في النهاية بالنتائج المفيدة ، وترجيح بعض الآراء على بعض بالأدلة
والبراهين أو الخروج برأى جديد مؤيد كذلك بالحج والبراهين .

أصحاب البديعات والكناية

لقد اتجه بعض المتأخرين من علماء البلاغة في النصف الأخير من القرن
السابع الهجري إلى صوغ الصور البلاغية في منظومات شعرية ليسهل حفظها
مضمنين كل بيت من هذه المنظومات لونا من ألوان البديع ، ومن أجل هذا
سموا بأصحاب البديعات ، وكان لهم منهج خاص يهدف إلى الاستيعاب والتكئين
من الحفظ ، ومن أشهر هؤلاء علي بن عثمان الإربلي المتوفى سنة ٦٧٠ هـ ، وصفي
الدين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ ، وجابر الأندلسي المتوفى سنة ٨٧٠ هـ ، وعز
الدين الموصلي المتوفى سنة ٨٧٩ هـ ، وابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٢٧ هـ ،
وعائشة الباعونية المتوفاة سنة ٩٢٢ هـ .

ولعل بديعية لم تظفر بالشهرة كما ظفرت بديعية ابن حجة الحموي السالفة الذكر ،
وقد جعلها في مائة واثنين وأربعين بقية ، استعملها بقوله :

لى فى ابتداء مدحكم يا عرب ذى سلم براعة تستهل الذم فى العلم

وهو فيها يقتدى بعز الدين الموصلى فى تضمين ألفاظ البيت ما يشير إلى الحسن البديعى الذى بناه عليه ، وصنف عليها شرحا مطولا سماه « خزانة الأدب » وقد طبع مراراً ونراه فى مقدمته لهذا الشرح بنوه بصفى الدين الحلى ، وبديعته وما اشتملت عليه من رقة ، بينما يصف بديعية عز الدين الموصلى بالثقل والتكلف الشديد ، ويقول : إنه لذلك انبرى يصنع بديعية ، تتضمن أبحاثها الإشارة إلى المحسنات البديعية على طريقته ، وفى الوقت نفسه تجرى فيها الرقة والسلامة على مثال بديعية صفى الدين .

وإن من يقرأ بديعية ابن حجة ، وشرحها المطول المسمى بخزانة الأدب يرى أنها مع خزانة كفيفة يتمثل منهج أصحاب البديعات فى الصور البلاغية التى منها الكناية ، ولذلك فإننى سأكتفى بذكر الكناية عند ابن حجة وموقفه منها ، وطريقة تناوله لها ليكون مثالا لهذا المنهج ، ودليلا على هذا المذهب .

ابن حجة الحموى والكناية

قال ابن حجة (١) :

قالوا طوبى لنجاد السيف ، قلت : وكم . لناره ألسنة تكتى عن الكرم

هذا بيت بديعته ، ويعلق عليه قائلا : الكناية هى الإرداف بمعنىة عند علماء البيان ، وإنما علماء البديع أفردوا والإرداف عنها .

ثم عرفها بقوله (١) : « السكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يحىء إلى معنى هو ردفه في الوجود فيسمى به إليه ، ويجعله دليلا عليه » ثم وضع التعريف فقال : « مثال ذلك قولهم : « طویل النجاد كثير الرماد » يعنون بذلك أنه طويل القامة كثير القرى ، فلم يذكره والمراد بذكره الخاص به ولكن توصلوا إليه بمعنى آخر ، هو ردفه في الوجود ، ألا ترى أن القامة إذا طالت طال طال النجاد ، وإذا كثر القرى كثر الرماد .

ثم أورد لها بعض الشواهد الشعرية ، ووصفها بالحسن ، من غير أن يذكر السبب في ذلك فقال : « ومن أحسن الأمثلة على هذا النوع قول الشاعر :
بعيدة مهوى القرط إما لتوفل أبوها وإما عبد شمس وهائم
ثم بين السكناية في البيت فقال : « أراد أن يذكر طول جيدها ، فأتى بتابعه ، وهو مهوى القرط »

ومن شواهد التي أوردتها ، ووصفها بالحسن والجودة قول ليلي الأخيلية :

ومخرق عنه القميص تخاله وسط البيوت من الحياء سقيا

ثم بين السكناية في البيت مثلها فعل في البيت السابق فقال : « كنت عن الإفراط في الجود بمخرق القميص لجذب العفاة له عند اذحامهم عليه لأخذ العطاء » .

ثم وضع مقياسا لبلاغة السكناية فقال (٢) : « والأبدع أن يكنى المتكلم

(١) خزانة الأدب ص ٤٤٠

(٢) خزانة الأدب ص ٤٤٠

عن اللفظ القبيح بالحسن « ثم استشهد على ذلك بآيات من القرآن ، فقال « والمجاز في ذلك قوله تعالى : « كأننا يأكلان الطعام » كناية عن الحدث ، وقوله جل جلاله : « وقد أنضى بعضكم إلى بعض » يريد بذلك ما يكون بين الزوجين » ثم عاقى على هذين الشاهدين القرآنيين فقال : « وعلى الجملة لا نجد معنى من هذه المعاني في الكتب العزيز إلا بلفظ الكناية ، لأن المعنى الفاحش متى عبر المتكلم عنه بلفظه الموضوع له كان الكلام معييا من جهة خش المعنى ، ولهذا عاب قدامه على امرئ القيس قوله :

فذلك حبلى قد طرقت ومرضع فألميتها عن ذى تمام محول

إذا ما بكى من تحتها انصرفت له بشق وتحتى شقها لم يحول

قال - أعنى - قدامة عيب هذا الشعر من جهة خش المعنى ، والقرآن منزّه عن ذلك ، ولو استعار امرؤ القيس لمعناه الفاحش لفظ الكناية لسلم من العيب ، وهذا القدر يفتقد على مثله «

ثم أوردوا الكناية شواهد من السنة الشريفة فقال : « وفي السنة النبوية من الكنايات ما لا يحصى كقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يضيع المصا عن عاتقه » كناية عن الضرب أو كثرة السفر ، «

هذا ما قدمه ابن حجة للكناية ، وإن من يتأمل جهده في هذا الميدان لا يرى فيه جديدا فهو عبارة عن جمع لآراء السابقين ، وشواهدهم ، ولذلك لم نتقدم أو نتطور الكناية على يديه ، بل وقف بها عندما وقف السابقون .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن أنثر أصحاب البديعيات وعلى رأسهم ابن حجة في الكناية بخاصة ، والصور البلاغية بعامة أمرا ضئيلا ، لأن هدفه - كما أسلفنا

كان الاتقياء والتكئين من الحفظ ، فضلا عن أن هذا المنهج الذي أسلكه أصحاب البديعات يقوم على الاختصار الشديد ويحتاج عمله إلى الشرح ، ولذلك فإنه أصاب الصور البلاغية بالتعقيد والجمود ، وأفقدتها الكثير من حسناتها وجلالها ، وروقتها وبهائها .

ملاحظات على الكناية عند القدماء

من خلال دراستي للكناية عند القدماء ، واطلاعي على جهودهم التي بذلوها ووقوف على آرائهم ، وتعرفي على اتجاهاتهم ، لاحظت عدة أمور أجملها فيما يلي :

١ — لقد تطورت الكناية على أيدي القدماء من العبور إلى العبوس إلى الوضوح ، ومن العموم إلى التخصيص ، فقد كانت عند أبي عبيدة هامة عامة ، فهي عندهم متر المعنى وراء أي لفظ آخر غير اللفظي الأصلي ، واستمرت في عبوسها وعمومها عند ابن المعتز ، وأبي هلال ، وابن رشيق ، وابن سنان ، ثم خلت خطوات واسعة على يد الإمام عبد القاهر الجرجاني ، فأخذت صورة المصطلح العلمي ، حيث اشترط فيها العبور إلى المعنى المقصود باستعمال معنى غير مقصود ، ولكنه ردف له وتاليه ، ثم دخلت في دائرة المجاز على يد ابن الأثير ، فقد حملها على جانبي الحقيقة والمجاز ، ثم خصصت تخصيصا تاما على يد الخطيب القزويني ، وبذلك صارت جميع الدراسات حولها تدور في إطار ما فعله الخطيب .

٢ — دراسة القدماء للكناية تكاد تكون في أغلب الأحيان دراسة تقليدية ، فالتأخر يقلد المتقدم في التعريف ، والتقسيم ، وينقل شواهد ، بل وينقل تعليقاته على هذه الشواهد ، دون أن يأتي بجديد يستحق الذكر والتسجيل ،

وفي بعض الأحيان قد يتصرف ، ولكن تصرفه يكون محصورا في الصياغة بأن يستبدل لفظا بآخر ، ومن أجل ذلك كان أثرهم في التجديد ضئيلا ، باستثناء الشيخ عبد القاهر الجرجاني وابن الأثير فقد كانت دراستهما للكفاية فيها الكثير من التجديد ، والابتكار في الفكرة وفي التعريف ، وفي الشواهد وفي التناول والصياغة ، والأسلوب فعبد القاهر هو الذي وضع أسس الاتجاه الأدبي الذي سار عليه الكثيرون من العلماء في تناولهم للصور البلاغية قديما وحديثا ، وقد امتازت دراسته بالعمق والتحليل والنقد الذي يهدف إلى إظهار ما في الأساليب العربية من الحسن والخلو ، أو القبح والرداءة ، وابن الأثير قد وضع أحسن اتجاه جديد في الدرس البلاغي ، فقد مزج الاتجاهين الأدبي والكلامى واستخلص منهما اتجاهها وصفا كان له أثر كبير في إثراء الدرس البلاغي ، وتجديد شباب الصور البلاغية ، وإظهار محاسنها ومفاتها ، بعد أن هربت وشاخت على يد السكاكي الذي مزق أوصالها ، وشوه حسناتها وجعلها ، وألبسها ثوبا قائما من المنطق والفلسفة .

٣ - لم يكشف لنا أغلب القدماء عن أثر الكفاية في الأساليب العربية وهذا مما يؤخذ عليهم ، فالكفاية تعبير فني جميل ، وصورة بيانية رائعة ، تكسب المعنى قوة ولطافة والأسلوب رونقا وبهاء ، يسلسلها الأدباء للتعبير عما يدور في نفوسهم من الخواطر ، ويبحث في صدورهم من المعاني ، فكان ينبغي للعلماء القدماء أن يكشفوا لنا عن حسناتها وجعلها ، ومدى مانتضيقه على الأسلوب من الروعة واللطافة والقوة ، ولكنهم لم يفعلوا وأهملوا هذا الجانب الجمالي الذي هو المقصود من دراسة الصور البيانية في الأساليب العربية .

٤ - خلت دراسة القدماء للسكناية في أغلب الأحيان من النقد الذي يقوم على الذوق والإحساس ويهدف إلى إظهار مافى الأساليب من الحسن والجودة، أو القبح والرداءة عن طريق الموازنة بين الصور البلاغية في الأساليب العربية والمفاضلة بينها على أسس نقدية سقيمة ، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنفس البشرية ، وتراعى فيها مقتضيات الأحوال ، وحسن الصياغة وجمال التعبير ، وحسن الأداء .

٥ - خلت دراسة القدماء كذلك من التحقيق والتحجيص ، ويظهر هذا واضحا في عدم نسبة أكثر الشواهد إلى أصحابها ، ولعل السبب في هذا هو التقاليد الذي سيطر على الكثير منهم ، فأخذ المتأخر ينقل شواهد من سبقه ، ولا يكلف نفسه مؤونة البحث عنها في مصادرها ، ومن أجل ذلك فإن كثيرا من كتب القدماء المطبوعة تحتاج إلى تحقيق .

٦ - دراسة القدماء للسكناية لم تتوفر فيها الأمانة العلمية ، فقد أو لموا بالتقاليد ، فكان للتأخر ينقل عن المتقدم تعريفه وشواهد وأقسامه ، دون أن يشير إلى ذلك ، وهذا يتنافى مع الأمانة التي تقتضيها البحوث العلمية ، فلما بحث أن ينتفع بإفكار من سبقه أو عامره من العلماء ، ويستفيد من دراسته بشرط أن يشير إلى ذلك ، أما أن يترك الإشارة ، وينسب إلى نفسه ما ليس له فهذا اعتداء ، وجحد للفضل ، ونكران للجميل ، وإخلال بواجب الأمانة العلمية .

٧ - دراسة القدماء للسكناية بخاصة والصور البيانية بعامة ، لم تكن دراسة موضوعية منهجية تقوم على حسن التبويب والتنسيق ، وإنما كانت في كثير من جوانبها دراسة مشوشة ، لانهتم بجمع أطراف الموضوع الواحد في موضع واحد ، بل ترى للموضوع الواحد يذكر في مواضع متفرقة ، وهذا يؤدي إلى تشتيت

ذهن القارئ ، وبصيصه بالملل والسآمة ، ويجعل محصولة العلمى ضئيلا ، وأثره قليلا ، وأكبر مثال على هذا كتابا عبد القاهر الجرجاني « لدلائل والأسرار » فإن الموضوع الواحد يتكرر فيها في أكثر من موضع ، حتى ليصبح من الصعوبة على القارئ أن يلم بأطراف الموضوع للمنشعة ، والمتناثرة في صفحات الكتاب .

٨ — دراسة القدماء للكناية ، وسر الصور البلاغية تكثر فيها الاختلافات حول التعريفات والتقسيمات والتفريعات ، وهذه الاختلافات قد جنت على الصور البلاغية ، فأطغأت أنوارها ، وأصابها أزهارها الجميلة بالذبول والجفاف ، ومزقت أوصالها ، وشوهت جمالها ، وأكبر مثال لهذا ما نراه في كتاب « الطراز » للعلوى ، فقد تتبع تعريفات السابقين ، ونقدنا نقدا حكما فيه للنطق ، واعتمد فيه على الفلسفة ، وأهمل الناحية الجمالية ، ولم يكتف أود أن يكرس جهده للناحية الجمالية التي هي المقصودة من دراسة الصور البلاغية ، ولكن لم يفعل ولمل السبب في ذلك أن القدماء قد تأثروا بالفلسفة والنطق ، فانعكس هذا التأثير على دراستهم للصور البلاغية ، فجاءت أساليبهم شاذة باهتة ، وجاءت دراساتهم جافة قائمة ، تكلد ذهن ، وترهق الفكر .

٩ — لم يتعرض أحد من القدماء لدراسة الكناية في القرآن الكريم دراسة مستقلة ، تكشف عن أثرها ، وفائدتها ، وسر جمالها وخلودها ، بل شغلوا أنفسهم بدراسات فلسفية عقيمة كالبحت في كونها حقيقة أم مجاز ، وأقاموا الدنيا وأقعدوها في هذا الجانب ، وأكثروا من الجدل في هذا الميدان ، وأهملوا الناحية الجمالية ، ويستثنى منهم في هذه الناحية الشيخ الزركشى ؛ فقد كشف عن بعض فوائدها في القرآن الكريم بأسلوب أدبي ، وبطريقة سهلة ميسورة ، ولكن لم يكشف لنا عن سر جمالها وعظمتها في القرآن الكريم .

١٠ - كذلك لم يتعرض أحد من القدماء لأحدث عن الكناية في القرآن الكريم من حيث الإعجاز هل هي معجزة أولا؟ وهذا مما يؤخذ عليهم ، فإن الهدف من دراسة البلاغية هو الوقوف على سر الإعجاز في القرآن الكريم ، فكان من الواجب على هؤلاء القدماء الأجلاء أن يدرسوا هذه الصور البلاغية في القرآن الكريم من هذه الناحية دراسة وافية مستفيضة ولكنهم لم يفعلوا ويستثنى منهم في هذه الناحية الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، فقد أشار إلى هذا إشارة جزئية حينما تعرض لبيان الاستعارة في قوله تعالى : « واشتعل (١) الرأس شيبا » فقد أرجع السر في جمال الاستعارة وشرفها إلى نظمها الذي هو فوق مقدور البشر ، ووقف عند هذه الجزئية ، ولم يجاوزها إلى غيرها من جزئيات البيان العربي ومن هنا ندرك أن عبد القاهر يرى أن الاستعارة - وهي صورة من صور البيان العربي - معجزة وأن إعجازها راجع إلى نظمها ، ولكنه - كما أسلفنا - وقف هذه عند الجزئية فقط (٢) .

١١ - سلك القدماء في دراسة الكناية بخاصة والصور البلاغية بعامه أربعة اتجاهات هي :

١ - الاتجاه الأول : تغلب عليه الناحية الأدبية ، ويعتمد إلى حد ما على الذوق والإحساس ، ومن رجال هذا الاتجاه ابن المعتز ، وأبو هلال العسكري وابن رشيق القيرواني والشيخ عبد القاهر الجرجاني .

(١) انظر ص ٨٩ ، ٨٠ من دلائل الإعجاز

(٢) لقد تحدث عن الإعجاز في الصور البلاغية ، ووفيته حقه على قدر استطاعته في كتابي « الإعجاز في نظم القرآن » في ص ٩١ - ١١١ فليرجع إليه القارئ الكريم إن شاء

٢ - الاتجاه الثاني : تغلب عليه الناحية الكلامية ، ويعتمد على العقل
والنطق ، ومن رجال هذا الاتجاه ، قدامة بن جعفر ، وابن سنان الخفاجي ،
والسكاكي ، والخطيب القزويني .

٣ - الاتجاه الثالث : هو مزيج من الاتجاهين الأدبي والكلامي ،
وهذا الاتجاه يعتمد على الذوق والعقل معا ، ويهتم بالناحيتين الجمالية والعلمية ،
ومن رجال هذا الاتجاه ابن الأثير ، وابن أبي الإصبع المصري ، وعز الدين بن
عبد السلام .

٤ - الاتجاه الرابع : اتجاه أصحاب البديعيات ، وهو اتجاه يكاد يكون
امتدادا للاتجاه الكلامي ، إذ هو اتجاه يهدف إلى الاستعباب والتمكين من
الحفظ ، ويهمل في أغلب الأحيان الناحية الجمالية .

الفصل الثاني الكناية في العصر الحديث

لقد تحدث في الفصل الأول من هذا البحث عن الكناية عند القدماء من علماء البيان العربي . فشكفت النقاب عن آرائهم ، وأعطت اللثام عن جهودهم ، ثم سجلت في نهاية الفصل ملاحظاتي على دراساتهم ، وفي هذا الفصل سأحدث بعون الله وتوفيقه عن الكناية عند المحدثين ، ونعني بهم علماء البيان في العصر الحديث ، ومن أشهر مؤلاء العلماء ، الشيخ المرصفي ، والشيخ المرافعي ، والشيخ ، علي الجارم ، والدكتور أحمد بدوي ، والدكتور بدوي طبانة ، والشيخ أحمد الهاشمي .

المرصفي والكناية :

لقد تحدث حسين المرصفي عن الكناية في كتابه « الوسيلة الأدبية للعلوم العربية » نعرفها بقوله : (١) « هي لفظ أريد به لازم معناه ، مع جواز إرادته أيضا ، فيكون المراد إحداهما جميعا » ثم قسمها إلى ثلاثة أقسام على نحو ما فعل السكاكي ، ثم بين أنواعها من الإشارة والرمز ، والايحاء ، منسما في ذلك خط السكاكي ، ثم أورد بعض الشواهد الأدبية ، وعاق عليها بأسلوب أدبي رائع ، موضعا موضع الكناية ، كاشفا عن حسن تصويرها ، وبراعتها .

ملاحظاتي على الكناية عند المرصفي :

١ - لقد ترسم الشيخ المرصفي - رحمه الله - خطأ السابقين ، وافقني أثرهم في دراسته للكناية فقعر يفه لها تعريف الخطيب الفوزيني ، وتقسيما ته هي

(١) الوسيلة الادبية للعلوم العربية ص ٢٦

تقسيمات السكاكي ، والأنواع التي ذكرها ، وجعلها أقساما للكفاية قد سبقه إليها السكاكي وشواهد التي أوردها هي شواهد السابقين ، وليس له فيها من جديد يذكر سوى تعليقه عليها بأسلوبه الأدبي لرائع الأخاذ .

٢ - امتازت دراسته للكفاية بتجيب الخلافات التي كثيرا ما كان يثيرها السابقون .

٣ - كما امتازت طريقته بحسن العرض وجمال الصياغة .
وبذلك نستطيع أن نحصره جديده الذي قدمه للكفاية في ثلاثة أمور :

(أ) تجيب الخلافات التي كثرت في كتب السابقين ، وتميزت بها دراستهم .

(ب) تعليقه على شواهد السابقين بأسلوب أدبي رائع .

(ج) الكشف عن جمال الكفاية وبراعتها بطريقة أدبية مشوقة .

الهامشي والكناية :

تحدث المرحوم أحمد الهامشي عن الكفاية في كتابه « جواهر البلاغة » فعرّفها بقوله (١) : « هي لفظ أريد به غير معناه الذي وضع له مع جواز إرادة المعنى الأصلي لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته » ثم أورد لها كثير من الشواهد من القرآن الكريم والسنة النبوية ، ومنظوم كلام العرب ومنثوره ، ثم علق على هذه الشواهد ، مبينا موضع الكفاية فيها فمن شواهد القرآنية قوله تعالى : « أيجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا » كفاية عن النسيئة ،

وقوله تعالى : « وحملناه على ذات ألواح ودسر كناية عن السفينة ، ومن شواهد الشعرية التي أوردها قول الحضرمي :

قد كان تعجب بمضهن براعتي حتى رأيت تنحنجني وسعالي
كفاية عن كبر اللسان .

ومن شواهد النثرية التي أوردها ماروي أن خلافا وقع بين بعض الخلفاء ، ونديم له في مسألة فاتفقا على تحكيم بعض أهل العلم فأحضر ، فوجد الخليفة مخطئا فقال : القائلون بقول أمير المؤمنين أكثر « يريد الجمال » ومن شواهد النثرية أيضا قول العرب في أمثالهم : « قلبت له ظهر الحين » كناية عن تغيير المودة .

ثم استطر في سرد ما ورد عن الأدباء من الكتابات اللطيفة في شتى المعاني والأغراض . بما يدل على سعة اطلاعه ، وطول معاصرته لأساليب اللغة العربية .

ثم ذكر تقسيمات الكفاية ، مترسما في ذلك خطأ السكاكي مع الإكثار من الشواهد ، ثم أماط اللثام عن بلاغة الكفاية بما لا يخرج عما قاله القدماء من علماء البيان .

ومن هنا نستطيع أن نقول منصفين : إن الهاشمي - رحمه الله قد ترسم خطأ السابقين في دراسته للكفاية فتعريفه ليس فيه جديد يثير في النفس دافعا إلى معرفته وشوقا إلى استجلاء جماله ، وإنما هو نسخة مكررة من تعريفات السابقين ، وتقسيماته تقسيمات السكاكي ، وليس له من جديد سوى الإكثار من الشواهد وتجنب الخلافات ، وحسن العرض ، وجمال الصياغة .

المراعى والكناية .

تحدث الشيخ مصطفى أحمد المراعى - رحمه الله - عن الكناية في كتابة « علوم البلاغة » فعرّفها لغة بقوله : « الكناية لغة أن تتكلم بشيء ، وتريد غيره ، وقد كنوت بكذا عن كذا ، أو كنيت ، إذا تركت التصريح به » وهو في ثبات معناها اللغوى يسلك منهج اللغويين القدماء ، بل يستشهد على أصل اشتقاقها ، بما استشهدوا به ، ثم يورد تعريفها الاصطلاحى فيقول : « وفى الاصطلاح تطلق على معنيين ، : -

(١) المعنى المصدرى الذى هو فعل للتكلم ، أعنى ذكر اللفظ الذى يراد به لازم معناه مع جواز إرادته معه .

(٢) اللفظ المستعمل فيما وضع له ، لكن لا ليكون مقصودا بالذات بل لينتقل منه إلى لازمه المقصود لما بينهما من البلاغة وال لزوم العرف .

ثم يذكر تقسيماتها مترسما فى ذلك خطأ الشيخين السكاكى والخطيب القزوينى ثم يستشهد لهذه الأقسام بما استشهد به السابقون ، ثم يعود فيقسمها إلى حسنة ، وقبيحة ، ثم يفرق بينهما بأن الحسنة ما جمعت بين الفائدة ولطف الإشارة ، والقبيحة ما خلت عن الفائدة المرادة من الكناية ، ثم يستشهد لهما بشواهد السابقين ، ثم يكشف النقاب عن بلاغة الكناية بما لا يخرج عما ذكره السابقون من علماء البيان .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الشيخ المراعى - رحمه الله - لم يقدم للكناية جدیدا يستحق الذكروالتسجيل : فلقد ترسم - كتبه من علماء عصره - خطأ السابقين ، وانتهى أثرهم وقدم فى كل شيء ، فقد عرفها بتعريفين لم يخرجوا عن تعريفى عبد القاهر والسكاكى ، ثم نقل عن السكاكى جميع تقسيماتها بصدق

وأمانة ، ثم استشهد لهذه الأقسام بشواهد السابقين ، ثم نقل عن ابن الأثير تقسيمها إلى حسنة ومعيبة ، وعندما تكلم عن بلاغتها نقل ما قاله الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، ولم يزد شيئا . وكل ما فعله الشيخ الراغبي هو حسن التنسيق والتبويب والبعد من الخلقات التي أولع بها السابقون .

الجارم وأمين والكناية

تحدث الأستاذان المرحوم علي الجارم ، والأستاذ مصطفى أمين عن الكناية في كتابيهما « البلاغة الواضحة » بطريقة جديدة لم يسبقوا إليها ، قبلها بعرض كثير من النصوص (١) الأدبية قرآنية ، وشعرية ، ونثرية ، ثم بحثنا هذه النصوص بحثا دقيقا من حيث اللفظ والمعنى ، ثم بينا مواضع الكناية فيها ، وكشف عن حسنها وبراعة تصويرها ثم وضعنا تعريفا لها هو « الكناية لفظ أطلق ، وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى » ثم قسما الكناية إلى ثلاثة أقسام .

١ — كناية عن صفة .

٢ — كناية عن موصوف .

٣ — كناية عن نسبة .

مترسمين في ذلك خطأ الساكني ، ثم تحدثنا عن بلاغة الأسلوب الكفائي وأثره في حسن الصورة ، وتصوير المعنى .

وحصرنا بلاغة الكناية فيما يلي :-

١ — الكناية تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها ، والقضية وفي طيها برهانها .

٢ — تبرز لك المعاني المجردة في صورة المحسوسات .

٣ — تمكنك من أن تشفى غلتك من خصمك من غير أن تجل له سبيلا

عليك ودون أن تخدش وجه الأدب .

(١) البلاغة الواضحة ص ١٢٣ .

٤ - التعبير عن القبيح بما تسيخ الآذان سماعه .

ثم أوردنا كثيراً من الشواهد الأدبية لهذه الأسرار البلاغية ، وعلفنا عليها
مبينين ما تضمنته هذه الشواهد من مظاهر الجمال ، والصغر الخلال بأسلوب
أدنى رائع أخاذ .

ملاحظاتى على السكناية عند الجارم وأمين

من خلال دراستى للسكناية عند هذين الأستاذين الكبيرين لاحظت عدة
أمور هى : —

١ - لقد ابتكرا طريقة جديدة فى تناول الدرس البلاغى فيها الكثير من
المزايا التى رفعت من شأن البلاغة العربية ، وأخذت بيدها نحو التقدم والرقى
ومن هذه المزايا ما يلى : -

(أ) إن هذه الطريقة تعمل على غرس ملكة البلاغة فى نفس القارىء ،
وتطبعه على الذوق العربى ، وتبصره بأسرار الكلام البليغ ، وما فيه من
ضروب الحسن وبدائع البيان .

(ب) إنها تعمل على تربية ملكة الذوق الصحيح .

٢ - أكثرنا من الشواهد الأدبية ، وحللناها تحليلاً أدبياً رائعاً ، وأوفقاً
القارىء على مواطن الحسن والجمال فيها .

٣ - تجنبنا الخلافات التى أكثر منها السابقون ، واتسمت بها دراساتهم .

٤ - ركزنا جهودهما على الناحية الجمالية التى هى المتصودة من دراسة
الصور البلاغية .

٥ - خلت دراستهما في أكثر جوانبها من الفلسفة والمنطق .

٦ - مع ابتكارهما للمنهج جديد في تناول الدرس البلاغي ، إلا أنهما لم يسلا من سيطرة المنهج القديم عليهما ، فلقد تعرضا لتفسيرات السابقين ، وأثبتتاها في هامش الصفحات فقد أثبتا أن السكناية إن كثرت وسائلها سميت تلويحاً ، وإن قلت وخفيت سميت رمزاً ، وإن قلت الوسائط ، ووضعت أولم تكن سميت إيماء وإشارة كما أنهما جمعا للمتعريض نوعاً من السكناية .

الدكتور أحمد بدوي والسكناية

تحدث الدكتور أحمد بدوي - رحمه الله - عن السكناية في كتابه « الأسس النقدية لدى علماء العربية » فكشف النقاب عن منزلتها في البيان العربي ، وأثرها في الأسلوب فذكر (١) أنها لون من ألوان الخيال ، عني بها نقاد العرب ، وعرفوا لها مكانها في الإيضاح والتأثير ، فإن الشعراء يذهبون أحياناً مذهب السكناية والتعريض ، وهم لما فعلوا ذلك بدت هناك محاسن تملأ الطرف ، ودقائق تمجز الوصف ، ورأيت هناك شعراً شاعراً ، وشعراً ساحراً ، وبلاغة لا يكمل لها إلا الشاعر المفاق والخطيب المصقع . ثم ذكر أن العرب وضعوا السكناية في مكان أرفع من التصريح ، وعال ذلك بأن الأديب في السكناية يقرن دعواه بإثبات أمر من الأمور ، بما يجعل النفس تراح إلى إثباته ، وتطمئن إلى هذا الإثبات ؛ إذ كأنه أتى ببرهان على دعواه ، وهذا واضح عقد ما يكون مراد الشاعر إثبات صفة أو نسبة ، فإذا كنى عن ذات اختار أنسب ما في هذه الذات ، وما له دخل في الحكم - فجعله كناية عنه ، اقرأ قول الشاعر :

بيت بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما بيوت بالملامة حات

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب - ط الثانية ص ٥٢٨ ، ٥٢٩ .

فنجده قد تلتطف في وصف هذه المرأة بالعمفة ، فذكر ما تطمئن به النفس إلى حسن سلوكها ، وعمفة نفسها ، وهو أن الناس لا يتخذونها مضغة في أفواههم ولا يتركون اسم بيتها مقترنا بما يسمى إلى سمعتها .

ثم بين أن نقاد العرب عابوا الكفاية ، إذا كان بين المعنيين وسائط كثيرة بحيث يغمض الشيء المطلوب ، ولا يظهر بسرعة ، كما كرهوا الكفايات التي تبعث في النفس آثاراً غير رفيعة كقول المتنبي :

إني على شغفي بما في خمرها لأعف عما في سراويلاتها

فهذه كفاية عن الفزاة والعمفة ، إلا أن الفجور أحسن منها ، وماذا لك إلا لنزول قدرها ، وسوء تأليفها .

ودراسة الدكتور أحمد بدوي — رحمه الله — للكفاية دراسة نقدية تحليلية تهدف إلى الكشف عما في الأساليب العربية من الحسن والجمال ، أو التبعث والرداءة ، وهذه الدراسة قد سبقه إليها القدماء ، ومن هنا نستطيع أن نقول : إن أثر الدكتور بدوي في الكفاية ضئيل فليس له من جديد سوى حسن العرض ، وجمال الصياغة .

الدكتور بدوي طبانة والكفاية

تحدث الدكتور بدوي طبانة عن الكفاية في كتابه « علم البيان » فقدم لدراستها بالكلام عن موقعها بين الفنون الأدبية أبان في هذا التقديم أن الأدب تعبير قولي هدفه الإيضاح في نقل المعاني والأفكار إلى الناس ممتازة في الفكر ، سامية في التعبير ، كما أوضح أن غاية الأديب من أدبه التي يرمى إلى تحقيقها التأثير والإقناع بالفكرة ، وصدق الإحساس حتى تحدث المشاركة بين

سامعي أو قارئ أدبه ، وحتى تكون تلك المشاركة مظهراً من مظاهر تقديره ، ولا شك أن هذه الغاية متحققة في جميع الصور البيانية ، وقد يظن ظان أن أسلوب الكتابة من بين الصور البيانية يخالف لما عليه الأسلوب البياني ، فأبان الهدف من دراسة الكتابة ، وكيف أنها لا تتعارض مع الوضوح المطلوب من الكلام ، بأنه لم يقصد بهذا الوضوح التبذل بالكلام ، بل لابد للإنسان أن يحيل فكره في صورة الكناية إلى أن يفهم هدف المتكلم ، وإنما المراد الوضوح الذي يكون معه إعمال الفكر ، وتحريك الخاطر لطلب المعاني .

ثم فرق بينها وبين التعقيد ، بأنها ما كان معناها إلى القلب أسرع من لفظها إلى السمع ، ومن هنا يبدو أثر الكناية أو التعريض أو الرمز أو الإيحاء في جمال ما تنبه من ملكات ، وما تستثير من الأذواق ، ولا يقصد بالإخفاء هنا ذلك الذي يصل إلى حد التعمية التي تعميك ، ثم لا تجدى عليك ، وتورقك ، ثم لا تروق (١) لك .

ثم كشف النقاب عن بلاغة الكناية فقال : « وأسلوب الكناية في البلاغة العربية من أهم الأساليب التي يلجأ إليها الأدباء ليحققوا الغاية التي ذكرناها في هذا الكلام من محاولة إخفاء المعنى الصريح ذلك الإخفاء الذي يجنبهم كثيراً مما يحشون التصريح به ، أو مما لا يرضونه لعباراتهم من الفحش والابتذال ، وهو في الوقت نفسه يستثير الشوق في نفس القارئ والسامع ، فيجد كل منهما المتعة الفنية التي يصل إليها بعد البحث والتأمل ، والإدراك ، فيظل أثرها باقياً في نفسه ، ويبقى الاستمتاع بها وقتاً طويلاً (٢) » .

(١) انظر ص ١٧٣-١٧٦ من علم البيان للدكتور بدوي طبانة .

(٢) علم البيان ص ١٧٦ .

الفصل الثالث

صور الأسلوب الكنائسي

تبلورت جمود البلاغيين في نهاية اللطاف عن تفرع الأسلوب الكنائسي، بحسب المطلوب، - كما يرى السكاكي - إلى ثلاثة أقسام، واستمرت هذه الأقسام دستور الأئمة عنه البلاغيون إلا نادراً.

وها هي الأقسام :

١ - القسم الأول : السكناية المطلوب بها صفة (١).

وهي نوعان : قريبة ، وبعيدة ، والقريبة نوعان : واضحة وخفية.

أولاً : القريبة :

(١) القريبة الواضحة : وهي التي ينتقل منها إلى المطلوب من أقرب لوازمه. إليه من غير واسطة ، وبسهولة ويسر لوضوح التلازم بين المعنى الحقيقي والمعنى الكنائسي :

ومن شواهد ما قول الحامسي :

أبت الروادف والتدنى لقبصها من للبطون ، وأن تمس ظهورا

وإذا الرياح مع العشي تفاوحت نهن حاسدة ، وهجن غيورا

فقد كنى بالبيت الأول عن غود تديها ، وكبر رديها ، وضمر خصريها

(١) المراد بالصفة : المعنى القائم بالغير ، لا خصوص النعت التحوي كالشجاعة والجن ، والكرم والبخل ، والطول ، والقصر ، والشرف والحسة والرفعة ، والضعفة ، وما شاكل ذلك ...

حيث أطلق منع الروادف والتدنى قصصها من أن تمس الظاهر أو البطن : لينتقل منه إلى المراد في سهولة ويسر لوضوح التلازم بين المعنى الحقيقي والمعنى السكثاني .
وقول عمر بن أبي ربيعة :

بعيدة مهورى القرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهشم (١)

فقوله : « بعيدة مهورى القرط » كناية عن طول العنق ، وهي كناية قريبة واضحة . لأن الانتقال من : بعد مهورى القرط : إلى طول العنق ، يحصل بسهولة ويسر ، ومن غير حاجة إلى تأمل وفكر .

(ب) الفرية الخفية : وهي التي ينتقل منها إلى المطلوب من أقرب لوازمه إليه من غير واسطة مع تأمل وإعمال فكر وروية خلفاء التلازم بين المعنى الحقيقي والمعنى السكثاني .

ومن شواهد قول الشاعر :

عريض القفا ميزانه في شاله قد انحص من حسب القراريط شاربه (٢)

يصف رجلا بالعباوة ، على طريق السكثانية ، لأن « عرض القفا » كناية عن الحق ، و « ميزانه في شاله » كناية عن البله ، و « انحص من حسب القراريط شاربه » كناية عن البلادة فهذه ثلاث كفايات قريبة خفية ، أما كونها قريبة : فلأن الانتقال من المعنى الحقيقي إلى المعنى السكثاني المراد لا يتوقف على وسائط ، وأما كونها خفية : فلأن الانتقال فيها من المعنى الحقيقي إلى المعنى السكثاني يتوقف على تأمل وإعمال فكر وروية ، فالانتقال من عرض القفا إلى

(١) القرط : حلى الأذن ، ومهواه : مسقطه من المنكب

(٢) انحص : انحسر شاربه لكثرة ما يعض على شفتيه عند الحسب والعد .

الحق ، ومن كون ميزانه في شماله : إلى البلاهة ، ومن انحصار شاربه إلى البلادة لا يفهمه كل أحد ، وإن فهمه أحد فبعد بذل مجهود فكري ، ومرجع ذلك إلى أنه لم يشتهر استعمال هذه التراكيب في هذه المعاني عند كل الناس .

ثانيا : البعيدة : هي التي يكون الانتقال فيها من المعنى الحقيقي إلى المعنى الكائناتى بواسطة واحدة أو أكثر .

فمن شواهد الأولى (١) : ما رواه البخارى ومسلم عن عدى بن حاتم قال : لما نزلت هذه الآية : « وكلوا واشربوا حتى يقبض لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود » عمدت إلى عقالين ، أحدهما أسود . والآخر . أبيض ، قال : فجعلتهما تحت وسادتي . قال : فجعلت أنظر إليهما . فلما تبين لى الأبيض من الأسود أمسكت ، فلما أصبحت غدوت على رسرل الله - صلى الله عليه وسلم - ، فأخبرته بالذى صنعت فقال : « إن كان وسادك لعريضا .. »

والشاهد في قوله - عليه الصلاة والسلام - « إن كان وسادك لعريضا » فهو كناية عن قلة فهمه ، وبين المعنى الحقيقي ، والمعنى الكائناتى المراد : واسطة واحدة ، إذ إنه ينتقل من عرض الوسادة إلى عرض القفا ، ومن عرض القفا إلى المعنى الكائناتى المراد .

ومن شواهدا أيضا قول أبى تمام :

فإن أنا لم يحمدك عنى صاغرا عدوك فاعلم أننى غير حامد

يقول لمعدو حه : إن لم أكن أجيء القول في مدحك إلى الحد الذى يرغب

عدوك على حفظه وترديده ، فلا تعتبرنى مادحا لك بما أنظم فيك .

(١) أى التى يكون الانتقال فيها من المعنى الحقيقي إلى المعنى الكائناتى بواسطة واحدة

فقد كنى بحفظ عدو بمدوحه مدحه فيه عن : إجاده شعره في مدحه ، فبين
المعنى الحقيقي والمعنى الكنائى واسطة واحدة ، إذ إنه ينتقل من : حفظ عدو بمدوحه
قول الشاعر فيه إلى : إعجابه بقوله ، وينتقل من إعجابه بقوله إلى : إجاده
شعره فيه ..

ومن شواهد الثانية (١) قول نصيب :

لعبد العزيز على قومه	وغيرهم ممن ظاهرة
فبابك أسهل أبوابهم	ودارك مأهولة عامر
وكبابك آنس بالزائر	ين من الأم بالابنة الزائرة

فإنه ينتقل من وصف كلبه بما ذكر إلى أن الزائر ين معارف عنده ، ومن
ذلك إلى اتصال مشاهدتهم ليلا ونهارا ، ومنه إلى لزومهم بابه ، ومنها إلى
وفور إحسانه إلى الخالص والعام وهو المقصود .

وقوله ابن هرمة :

لا أمتع العود بالفصال ولا أبتاع إلا قربة الأجل (٢)

فإنه ينتقل من عدم امتاع العود بالفصال إلى : نحرها ، ومنه إلى : كثرة
الآكلين ، ومنها إلى : كثرة الضيوف ، ومنها إلى الكرم .

(١) أى التى يكون الانتقال فيها من المعنى الحقيقي إلى المعنى الكنائى بأكثر
من واسطة .

(٢) العود ، بضم العين : جمع عائدة وهى الناقة الحديثة التاج . الفصال بكسر
الصاد : جمع فصيل ، وهو ولد الناقة إذا فصل عن أمه ، أى فطم ، أبتاع : أشتري .

وقول الآخر :

ومايك في من عيب فأى جبان الكلب مرزول الفصيل

فإن الذهن ينتقل من جبن الكلب عن الهرير في وجه من يقصد دارا هو
مقيم على حراستها والعس دونها مع أن ذلك ليس من طبيعه ، إلى أنه قد دام
زجره وتأديبه حتى تغير عن مجرى عادته ، ثم إلى استمرار موجب نباحه ، وهو
اتصال مشاهدته وجوها إثر وجوه ، ومن ذا إلى كونه ملجأ للقاصي وللداني ،
ومن ذا إلى أنه مشهور بحسن قرى الأضياف .

وكذا ينتقل من هزال الفصيل إلى فقد الأم ، ومن ذا إلى قوة الداعى إلى
نحرها ، مع كمال عذائهم بالتوق خصوصا المتألى (١) منها ، ومن هذا إلى صرفها
إلى الطبايح ، ومن ذا إلى أنه مضياف .

٢ - القسم الثانى : الكناية المطلوب بها موصوف :

والكناية في هذا القسم نوعان : قريبة ، وبعيدة

فالقريبة : هى أن يتفق في صفة من الصفات اختصاص بموصوف معين

عارض فتذكرها متوصلا بها إلى ذكر الموصوف . كقول الشاعر

الضاربين بكل أبيض مخدّم والطاعنين بمجامع الأضغان (٢)

فقد كنى « بمجامع الأضغان » عن القلب

وقول شوقي في محاسن اللغة العربية :

(١) المتألى : من أنلت الناقة : إذا تلاها ولدها . (٢) الأبيض : المراد به
السيف ، مخدّم على وزن منبر : القاطع ، الأضغان : جمع ضغن بكسر الصاد
وسكون الغين وهو الحقد .

إن الذي ملأ اللغات بحاسنا
جمل الجمال وسره في الضاد
فقد كنى : بـ « الضاد » عن اللفظة العربية ، لأن حرف الضاد من خصائصها
التي تدل عليها .

وقول المتنبي يمدح سيف الدولة لما ظفر بهنى كلاب :
فساهم وبسطهم حررر وصبحهم وبسطهم تراب
ومن في كفه منهم قناة كمن في كفه منهم خضاب
والشاهد في البيت الثاني ، فقد كنى بمن يحمل قناة عن الرجل ، وكنى ،
بمن في كفه خضاب عن المرأة . فهو يريد أنهم لهيبة سيف الدولة خذلوا حتى
صار الرجل منهم كالمرأة .

وقول أبي العلاء المعري :
سليل النار دق ورق حتى كأن أباه أورثه السلالة
فكنى بقوله : « سليل النار » عن السيف ، لأن للنار شأنا كبيرا في صنعة فكانها
ولدت ، وأنتجته .

وقول أبي نواس في الخمر :
ولما شربناها ودب ديلها إلى موطن الأسرار قات لها قفى
فقد كنى : بـ « موطن الأسرار » عن القلب
وقول آخر يرثي رجلا مات بعة في قلبه :

ودبت له في موطن الحلم علة لها كالصلال الرقش شرديب (١)

(١) الصلال . جمع صل بكسر الصاد وهي الحية التي يسرى سمها في اللدغ .
بحيث لا ينفع فيه المصل ، ومعنى الرقش أن فيها نقط سواد وبياض ، وهي من
أشد الحيات إيذاء .

فقد كنى بـ: «موطن الحلم» عل القلب

وقول الآخر :

قوم ترى أرماحهم يرم الوغى مشغوفة بمواطن السكمان

فقد كنى بـ: «مواطن السكمان» عن القلوب لأنها مواضع الأسرار الخفية.

والبعيدة : هي أن يتكلف المتكلم اختصاصها بأن يظم إلى لازم لازما

وآخر حتى يافق مجموعا وصفيا مانعا من دخول كل ماعدا متصوده .

كأن يقول في الكفاية عن الإنسان : « هو حى مستوى القامة عريض

الأظفار » فهذه المعانى : « حى مستوى القامة ، عريض الأظفار » مجتمعة تعتبر

مختصة بالإنسان ، لا توجد فيما عداه ، فينتقل منها إليه .

وشرط البلاغيون في هاتين السكتين الاختصاص بالكنى عنه ، وذلك

بكون المعنى المكنى به مختصا بالمكنى عنه ليحصل الانتقال الى المعنى المقصود.

٣ - القسم الثالث : الكفاية التى يطلب بها تخصيص الصفة بالموصوف :

وهى التى يسمونها « كفاية النسبة » ، ويراد بها إثبات أمر لأمر أو نفيه

عنه ومن شواهد قول زياد الأعجم :

لأن الساحة والمروءة والندى فى قبه ضربت على ابن الحشرج

فإنه أراد أن يثبت اختصاص ابن الحشرج بهذه الصفات أى ثبوتها له ،

وأراد ألا يصرح بإثبات هذه الصفات له ، فجعلها فى قبه ، وجعلها مضروبة عليه

فأفاد لإثبات الصفات المذكورة له بطريق الكفاية .

وقول الشنفرى الأزدى فى وصف امرأة بالغة :

بيت بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما بيوت بالملامة جلت

فإنه لما أراد أن يبين عفافها ، وبراعة صاحبها عن التهمة ، وكال نجاتها ،
عن أن تلام بنوع من الفجور على سبيل الكفاية نسبها إلى بيت يحيط بها ،
تخصيصيا للنجاة عن اللوم بها .

وقول المتنبي في مدح كافور :

إن في ثوبك الذي المجد فيه أضياء يزرى بكل ضياء

حيث أراد أن يثبت المجد لكافور ، فترك التصريح بهذا ، وأثبتته للماله
تعلق به وهو الثوب بطريق الكفاية .

وقول السكيت الأسدي بمدح أبان بن الوليد البجلي :

بصير أبان قرين السما ح والمكرمات معا حيث صارا

وقول أبي نواس بمدح الخصيب أمير مصر :

فما جازه جود ولا حل دونه ولسكن يصير الجود حيث يصير

ففي البيت كذايتان أريد بهما اختصاص المدوح بالجود وقصره عليه ،
إحدهما في قوله : « فما جازه جود ولا حل دونه » والثانية في قوله : « ولسكن
يصير الجود حيث يصير » وقد تلطف أبو نواس في إثباتهما أحسن تلطف ،
وصاغهما أدق صياغة ، حيث نكر الجود في الشطر الأول ، فعنى جميع أفراد
الجود ، لأن النكرة في سياق النفي تعم ، ثم نفى أن يجوز ، ويشتمل بمدوحه ،
ويحل دونه ، فيكون متوزعا يقوم منه شيء بهذا ، وشيء بذلك ، وحيث لا يوجد
شيء من الجود عند غير المدوح ، فقد ثبت له الجود كله ، واختص به ، ثم
تراء يعرف الجود في الشطر الثاني باللام المفيدة للعموم ، ثم يحل في ذات المكان
الذي يحل فيه المدوح ، وبذلك يفيد اختصاصه به على أبلغ وجه وأكده .

أقسام الكناية عند ابن الأثير

لقد نما ابن الأثير في تقسيم الأسلوب للكنايات نحو آخر إذ بنى تقسيمه على الوسائط التي توصل إلى المطلوب من القرب والبعد والقلة والكثرة وجعلها على ضربين (١) :

الضرب الأول : ما يحسن استعماله :

والضرب الآخر : ما يقيح استعماله ، وهو عيب في صناعة التأليف .

فأما الضرب الأول - الذي يحسن استعماله - فإنه ينقسم إلى أربعة أقسام :

١ - التمثيل :

وهو التثبيته على سبيل الكفاية ، وذلك أن تراد الإشارة إلى معنى ، فتوضع ألفاظ تدل على معنى آخر ، وتكون تلك الألفاظ ، وذلك المعنى مثلاً للمعنى الذي قصدت الإشارة إليه والعبارة عنه ، كقولنا : « فلان نقي الثوب » أي منزّه عن العيوب .

والكلام بها فائدة لا تكون لو قصدت المعنى بلفظه الخاص ، وذلك لما يحصل للسامع من زيادة التصور المدلول عليه ، لأنه إذا صور نفسه مثال ما خوطب به كان أسرع إلى لرغبة فيه ، أو الرغبة عنه . فن بديع التمثيل قوله تعالى : « أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً » فأما تمثيله الاغتياث بأكل كل إنسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله لحم الأفع ، ولم يقتصر على لحم الأفع حتى جعله ميتاً ، ثم جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالهبة . وهذه أربع دلالات وافية على ما قصدت له مطابقة المعنى الذي وردت لأجله ،

(١) انظر الجامع الكبير لابن الأثير - مطبعة المجمع العلمي العراقي بغداد

خشد يد المناسبة جدا ، وذلك لأن الاغتياب إنما هو ذكر مثالب الناس ، وتمزيق أعراضهم ، وتمزيق العرض بمائل لأكل الإنسان لحم من يفتابه ، لأن أكل اللحم فيه تمزيق للاحالة ، وأما قوله . « لحم أخيه » فلما في الاغتياب من الكراهة ، لأن العقل والشرع معاقد أجمعا على استكراهه ، وأما بتركه والبعد عنه ، ولما كان كذلك جعل بمنزلة لحم الأخ في كراهته ، ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر مثله ، إلا أنه لا يكون مثل كراهته لحم أخيه فهذا القول مبالغة في استكراه الغيبة لا أمد فوقها ، وأما قوله : « ميتا » فلاجل أن الغتاب لا يشعر بشيئ منه ولا يحس . وأما جعله ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالحببة ، فلما جبات عليه النفوس من الميل إلى الغيبة والشهوة لها ، مع العلم بأنها من أذى الخلال ، ومكره الأفعال عند الله تعالى والناس ، فتمزيق العرض مثل أكل الإنسان لحم من يفتابه ، لأن ذلك تمزيق على الحقيقة وجعل بمنزلة لحم الأخ لأجل المبالغة في الكراهة و« الميت » لامتناع الإحساس به ، واتصال ما هو مستكره بالحببة ، لما في طبع الأنفس من الشهوة للغيبة والميل إليها . ومن هذا القسم قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط » فقل البخل بأحسن تمثيل ، لأن البخل لا يمد يده بالمعطية كالملول الذي لا يستطيع أن يمد يده . وإنما قال : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك » ولم يقل . « ولا تجعل يدك مغلولة » من غير العنق ، لأنه قال : « ولا تبسطها كل البسط » فناب ذكر العنق ، عن قوله : « كل الغل » ، لأن غل اليد إلى العنق هو أقصى الغايات التي جرت العادة بغل اليد إليها .

ومن أمثال العرب « إياك وعقيلة الملح » وذلك تمثيل للمرأة الحسناء في مهيت السوء ، لأن عقيلة الملح هي اللؤلؤة ، تكون في البحر ، ومن التمثيل قول

ابن الدميثة :

أبني أفي يمني يديك جعلتني . فأفرح أم صبرتني في شمالك ؟

فذكر اليمين ، وجعلها مثالا لإكرام المنزلة ، وذكر الشمال ، وجعلها مثالا لهوان المنزلة ، لأن اليمين أشرف منزلة من الشمال ، وأكرم محلا .

وفي القرآن العزيز ما يدل على ذلك ، وهو قوله تعالى : « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود . . . الآية » ، فلما جاء إلى ذكر الشمال قال تعالى : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . . . الآية (١) » .

٢ - الإرداف :

وهو اسم سماء به قدامة بن جعفر السكاك (٢) ، قال ابن الأثير : وأكثر علماء هذه الصناعة قد أدخلوا الإرداف في « التمثيل » وفي الفرق بينهما إشكال ودقة (٣) ، فأما « التمثيل » فقد سبق أن تراد الإشارة إلى معنى فتوضع الألفاظ الدالة على معنى آخر تكون تلك الألفاظ ، وذلك المعنى مثالا للمعنى الذي قصدت الإشارة إليه ، والعبارة عنه ، كقولنا : « فلان نقي الثوب » أي منزله عن العيوب .

وأما « الإرداف » فهو أن تراد الإشارة إلى معنى ، فيترك اللفظ الدال عليه ، ويؤتى بما هو دليل عليه ، ومرادف ، كقولنا : « فلان طويل النجاد »

(١) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور لابن الأثير

ص ١٥٧ - ١٥٩ .

(٢) نقد الشعر ص ٨٨ .

(٣) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ص ١٦٠ .

والمراد به طویل القامة، إلا أنه لم يتلفظ بطول القامة الذى هو الغرض، ولكن ذكر ما هو دليل على طول القامة، وليس نقاء الثوب دليلاً على النزاهة عن العيوب، وإنما هو تمثيل له.

والإرداف يتفرع إلى خمسة فروع (١) :

١ - فعل المبادهة : كقوله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً، أو كذب بالخلق لما جاءه » فإن المراد بقوله تعالى : « لما جاءه » أى أنه سفيه الرأى، يعنى : أنه لم يتوقف فى تكذيبه وقت ما سمعه، ولم يفعل ما يفعله المراجع (٢) العتول المثبتون فى الأشياء، فإن من شأنهم إذا ورد عليهم أمر، أو سمعوا خبراً أن يستعملوا فيه الروية والفكر، ويتأنوا فى تدبيره، إلى أن يصح لهم صدقه أو كذبه، ألا ترى إلى قوله تعالى : « لما جاءه » أى أنه ضعيف العقل، طازب الرأى، فعدل عن ذلك إلى ما هو دليل عليه، وأردف له، وهو قوله : « لما جاءه » وذلك أكد وأبلغ. ومن هذا الباب أيضاً « وإذا تلقى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم، وقالوا ما هذا إلا إناك مفترى » وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين » والكلام على ذلك كالسكلام على الذى قبله.

٢ - باب « مثل » وذلك دقيق الصفة لطيف المعنى، وقد كانت العرب تأتى « بمثل » فى هذا الوضع توكيداً للكلام، وتثبيتاً لأمره، بقول الرجل إذا نفى عن نفسه القبيح : « مثلى لا يفعل هذا » : أى أنا لا أفعله، فتفى ذلك عن مثله، وهو يريد نفيه عن نفسه، قصداً للمبالغة، فسلك به طريق

(١) الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ص ١٦٠ - ١٦٥

(٢) المراجع : جمع المرجاح أى الكثير الاهتزاز، ولعله أخذه من نخل

مراجع، أى موقرة بكثرة التمر.

(٦ م - الأسلوب السكتائى)

السكناية ؛ لأنه إذا نفاه ممن يماثله ، أو يشابهه ، فقد نفاه عنه لا محالة .

وكذلك قولهم أيضا : « مثلك إذا سئل أعطى » أى أنت كذلك ، وهو كثير فى الشعر القديم والمولد ، والكلام المنشور ، وسبب تأكيد هذه المواضع : « مثل » أنه يراد أن يحمل من جماعة هذه أوصافهم ، تثبيتها للأمر ، وتمكينه ولو كان فيه وحده لقلق منه موضعه ، ولم ترس فيه قدمه .

ومثل ذلك قولهم فى مدح الإنسان : « أنت من القوم الكرام » أى لك فى هذا الفعل سابقة ، وأنت حقيق به ، ولست دخيلا فيه .

وقد ورد هذا الباب فى القرآن الكريم ، كقوله تعالى : « ليس كمثله شئ » وهو السميع البصير ، وهذا كتواهم : « مثلك لا يبخل » فنفى البخل عن مثله ، وهم يريدون نفيه عن ذاته ، قصدا للمبالغة ؛ لأنهم إذا نفوه عن يد مسده ، وهو على أخص أوصافه ، فقد نفوه عنه . ونظير ذلك قولك للعربى : « العرب لا تحفر الدم » ؛ وهذا أبلغ من قولك : « أنت لا تحفر الدم »

وليس فرق بين قوله تعالى : « ليس كمثله شئ » وبين قوله : « ليس كالله شئ » إلا من الجهة التى نهبنا عليها .

٣ — ما يأتى فى جواب الشرط ، وذلك من اللطف للسكنايات وأحسنها ، فن ذلك قوله تعالى : « وقال الدين أوتوا العلم والإيمان ، لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث » كأنه قال : إن كنتم منكبين يوم البعث فهذا يوم البعث ، فكفى بقوله : « فهذا يوم البعث » عن بطلان قولهم وكذلكهم فيما ادعوه ، وذلك رادف له ، ونظيره قولك : « تنسكح حضور زيد فيها هو » أى فأنت كاذب ، وهذا من دقائق السكناية .

٤ - الاستثناء من غير موجب ، وذلك من غرائب الكفاية ، كقوله تعالى : « ليس لهم طعام إلا من ضريع » والضريع نبات ذو شوك تسمية قریش « الشبرق » في حالة خضرته وطراوته ، فإذا يبس سمته العرب « الضريع » ، والإبل ترعاه طرياً ، ولا تقربه يابساً ، والمعنى ليس لهم طعام أصلاً ، لأن الضريع ليس بطعام البهائم ، فضلاً عن الإنسان ، وهذا مثل قولك : « ليس لفلان ظل إلا الشمس » ، تريد نفي الظل عنه ، وذكر الضريع رادف لانتفاء الطعام . وعلى نحو من هذا جاء قول بعضهم :

وتفردوا بالمسكرات فلم يكن
سراهم منها سوى الحرمان

والمراد نفي المسكرات عن سواهم ، لأنه إذا كان الحرمان من المسكرات مفاهم منها شيء ألبته :

٥ - ليس بشيء مما تقدم ، وذلك نحو قوله تعالى : « عفا الله عنك لم تَأذنت لهم » والمعنى المراد من هذا الكلام : إنك أخطأت ، وبئسما قلت ، وقوله « لم أذنت لهم » بيان لما كنى عنه بالعفو ، أى مالم أذنت لهم ، وهلا استأنيت ؟ فذكر للعفو دليل على الذنب ، ورادف له ، وإن لم يكن يذكره ، وكذلك جاء قوله تعالى : « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والنجس أعدت للكافرين » ، قيل لهم لماذا استبنيتم العجز عن المعارضة فأتركوا العناد ، فوضع قوله : « فاتقوا النار » موضعه ، لأن اتقاء النار لصيقته ، وضميمة من حيث إنه من نتائج روادفة ، لأن من اتقى النار ترك المعاندة . ونظيره أن يقول الملك لحشمه : « إذا أردتم السكرامة عندى فاحذروا سخطى ، يريد فاطموني ، واتبعوا أمرى ، وافعلوا ما ينتجه حذر السخط ، وذلك رادف له . ومن هذا الباب قوله تعالى : « قلت الأعراب آمدا قل لمؤمنوا ، ولستكن

قولوا أسلموا ، ألا ترى إلى لطافة هذه الكناية ؟ فإنها أفادت تكذيب دعواهم ، ودفع ما انتحلوه . وفائدتها هنا أنه روعى في تكذيبهم أدب حسن ، حيث لم يصرح بلفظه ، فلم يقل : كذبتُمْ ، لأن فيه نوع استقباح في الخطاب ، ووضع قوله تعالى : « لم تؤمنوا » الذي هو نفى ما ادعوا ببيانه موضعه ، لأن ذلك رادف له . ومما يجرى هذا المجرى قوله تعالى : « قال الملا الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه » ، قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون » فإن الغرض بقولهم : « إنا بما أرسل به مؤمنون » جوابا عن سؤالهم « أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه » ؟ إثبات العلم بإرساله ، وأنه من الأمور الظاهرة المسلمة ، التي لا يدخلها ريب ، ولا يمتريها شك ، لكن عدل عن ذلك إلى ما هو دليل عليه ، ورادف له ، وهو الإيمان به ، أعنى بصالح . وإنما صرح منهم بعد ثبوت نبوته عندهم ، والعلم بإرساله إليهم ، بالإيمان به إذن دليل على العلم بأنه نبي مرسل ، وهذا من دقائق الإرداف ولطائفه .

وأمثال ذلك كثيرة كقول الأعراب في حديث أم زرع في وصف زوجها : « له إبل قليلات المسارح ، كثيرات المبارك ، إذا سمعن صوت المزهر أبقن أنهن هو لك » فإن الظاهر من هذا القول أن إبله تنزل بغفائه ولا تبرح ليقرّب عليه نحرها للأضياف فإذا ضرب المزهر للقيان نحرها لضيوفه . لقد اعتادت هذه الحالة ، وأتقنها ، وغرض الأعرابية من هذا الكلام أن تصف زوجها بالجود والكرم ، ولكنها لم تذكر ذلك بانفظة الدال عليه ، وإنما أتت بمعان هي أدلة على ذلك من غير تصريح بمرادها ، وكذلك قال بعضهم :

وددت - وماتتني الودادة - أنني بما في ضمير الحماجية عالم
فإن كان خيرا سرني وعلمته وإن كان شرا لم تلعني اللوائيم

فإن المراد من قوله : « لم تلعن اللواتم ، أنى أهجرها . فأضرب عن ذلك جانباً ، ولم يذكر اللفظ المختص به ، ولكنه ذكر ما هو دليل عليه ، ورادف له .

٣ — المجاورة :

وذلك أن يريد المؤلف ذكر شيء ، فيترك ذكره جانباً إلى مجاوره ، فيقتصر عليه ، اكتفاء بدلالته على المعنى المقصود ، كقول عنترة :

وشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على الفنا بحرم
أراد بالثياب هنا نفسه ، لأنه وصف المشكوك بالكرم ولا توصف الثياب به فثبت حينئذ أنه أراد ما شتمل عليه الثياب ، وفي ذلك من الحسن ما لا يفكره العارف بهذه الصناعة ، وقال عنترة أيضاً :

بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر في الشال مقدم (١)

الصفراء هنا الخمر ، والذكر للزجاجة حيث هي مجاورة لها ، ومشملة عليها ، وذهب بعض المفسرين في قوله تعالى : « وثيابك فطهر » إلى أنه أراد بالثياب القاب أو الجسد ، أى قلبك فطهر أو جسدك ، وأمثلة هذا كثيرة .

٤ — الكناية التى ليست تمثيلاً ولا إردافاً ولا مجاورة :

كقوله تعالى : « أو آمن بنشأ فى الحلية . وهو فى انحصام غير مبين » فكأن عن النساء بأنهن يتربن فى الحلية أى الزينة والنعمة ، وهو (٢) إذا احتاج إلى محاورة الخصوم كان غير مبين ، أى ليس عنده بيان ، ولا يأتى ببرهان يحتاج

(١) ذات أسرة : أى ذات طرائق وخطوط . وقوله بأزهر يعنى لإبريقاً من فضة أو رصاص ومقدم مسدود فه بخرة ، وقيل مقدم عليه القدم يصنى به
(٢) الضمير هو ، عائد إلى من ، فى قوله تعالى « أو من ينشأ فى الحلية » باعتبار لفظها .

به من يخصه . وذلك لضعف عقول النساء ، ونقصها عن فطرة الرجال .
ومن هذا الباب قول أبي نواس :

تقول التي من بيتها خف محلى عزيز علينا أن نراك تسير
الآن ترى إلى حسن هذه السكفابة عن ذكر امرأته بقوله : « التي من بيتها »
خف محلى » فإنه من اللفظ مذهبها ؟ وكذلك قول نصيب :
فما جوا فأنثوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق

الفصل الرابع

الأثر البلاغي للأسلوب الكائن

الكناية وادمن أودية البلاغة ، ومقتل من مقاتل البيان العربي ، وغاية لا يصل إليها إلا من لطف طبعة ، وصفت قريحته ، وطريق جميل من طرق التعبير الفني ، يلجأ إليه الأدباء للتعبير عما يدور في نفوسهم من المعاني ، ويجيش في صدورهم من الخواطر ، ووسيلة قوية من وسائل التأثير والإقناع ولها أثر كبير في تحسين الأسلوب ، وتزيين الفكرة ، فهي في العبارة الأدبية كالذرة المقيمة في العقد ، كالخال في خد الحناء ، كالزهرة الجميلة في الروضة الفيحاء ، تضيء عليها جمالا أخاذاً ، وسحراً حلالات ، وتكسوها رونقاً وبهاءً ، فتسترعي الانتباه ، وتسترقق الأسماع ، وتبهز الألباب ، وتذوب النفس تأثراً يجمها ، وتترافق المواطن تهياً لعناقها ، وتتحرك الأحاسيس مغفونة بحسنها وبهائنها .

وقد بحث البلاغيون قديماً وحديثاً عن سر جمال الكناية وحسنها وعظمتها ، وقد توصلوا في النهاية إلى الكشف عن هذا السر ، وأجلوه فيما يلي : —

١ — الكناية تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها ، والقضية وفي طيها برهانها . كقول البحري :

يفضون فضل اللحظ من حيث ما بدا لهم عن مهيب في الصدور محجب

فإنه كنى عن إكبار الناس للممدوح ، وهيبهم إياه بغض الأبصار الذي هو في الحقيقة برهان على الهيبة والإجلال ، وتظهر هذه الخاصة جلية في الكتابات عن الصفة والنسبة .

٢ - الكتابة تضع لك المعاني في صور المحسات ، ولا شك أن هذه خاصة الفنان ؛ فإن المصور إذا رسم الكصورة للأمل أو اليأس بهرك ، وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه واضحا ملموسا ، وذلك لأن المعاني السكوية مستنتجة من الجزئيات المحسوسة ، ومجردة عنها . وهذه المعاني المجردة لا يدركها العقل واضحة إلا إذا صور لنفسه محسوسات جزئية ، تسكنى عنده لا تتزع صورة مجردة عنها ، وإلا فلا يتصور من اللفظة الموضوع لها إلا صورة إجمالية خفيفة جداً ، ثم هو لا يتأثر عند سماعها إلا بمساعدة انفعال بصاحب صورته الجملة ، ويقترن بها أحيانا ، فالسكرم والجود والندى الموجودة في أمثلة الأسلوب السكتاني معان متقاوبة ، وجميعها مجردة عن جزئيات محسوسة ، لا تنضح تلك المعاني لدى الدهن إلا إذا صور تلك الجزئيات المنزعة فيها .

فقولنا : « محمد كريم » تعبير لا يتصور معه السامع صورة السكرم واضحة في محمد إلا إذا صور له يعطى محتاجا أو سائلا ، أو تصوره بقرى ضيفا ، وتخيّل أن السامع تصور ذلك ، فإنه لا يتصور مقدار السكرم من مجرد تصور إعطاء أو تصور قرى ، لأن صفة السكرم متفاوتة شدة وضعفا ، ولا يمكن معرفة شدتها ، أو وضعفها إلا إذا عرف مقدار العطاء ، والتوسع في القرى ، ثم الهيئة والحالة التي يسكون عليها محمد من ارتياح ومسارعة ، أو قطوب ، وتباطؤ . ، وبذلك وضح أن السامع لا يقف أولا يدرك صورة السكرم من الجملة السابقة إلا أن يمثل لنفسه محمد في عطاء ، ولا يدرك تلك الصفة شدتها إلا إذا تصور كثرة العطاء من جهة ارتياح محمد ومسارعته إلى العطاء من جهة أخرى .

وهذه الأشياء لا يمكن أن يمثلها السامع لنفسه من الجملة السابقة إلا بتعب وإطالة وقوف أمامها وإمعانه فيها ، بخلاف ما إذا سمع قول الشاعر :

عمره الملا ذو الندى لا يسابقه مر السحاب ولا ريح تجارية
أجفاته كالجواي للوفد إذا لبوا بمسكة ناداهم مناديه
أو انحلوأخصبوا منها وقد ملئت قوتا لحاضره منهم وباده

غإن الشاعر لم يقتصر على وصف عمره بالندى ، ولو كان منه ذلك ، ما كان
لكلامه حلاوة ، ولا بلاغة ، وأكثنه زاد على وصفه مسارعتة إلى الندى ، وصور
أجفاته التي يوضع فيها الطعام أنها كثيرة ، وكبيرة كالجواي ، بل زاد على ذلك
أنه أقام منادين ينادون من حضر مسكة إليها ، ثم لم يقف عند ذلك ، بل صور
أن المدوح مدحوم على هذا حتى في أيام المحل وقلة الطعام للحاضر والبادي على
كثرتهم ، فنصور العفل من جميع هذه الجزئيات صورة الكرم ، وشدها في
الموصوف على أتم وضوح ، فحصل عنده بذلك المصرة والاستحسان ، وقام في
نفسه من الإعجاب بعمره والإجلال له ما يناسب وضوح الصورة التي تجلت
عليه من مجموع العبارات في الأبيات .

فالكتابة في أغلب صورها هذا شأنها ، فإنها تمثل للذهن المعنى المجرد
بصورة جزئياته المحسوسة ، فيدرك من ثم المعنى المقصود على أخصر طريق من
غير استسكراه ولا عسر فقول الشاعر :

أرغ وأزبد با يزيد فما وعيدك لي بضائر

فإنه كفى عن شدة الغضب بجزئيات محسوسة يستدل بها عليه .

وقول الآخر :

نصبوا بقارعة الطريق خيامهم يتساقون إلى قرى الضيفان

ويكاد موقدهم يحود بنفسه حب القرى خطبا على النيران

فإن هذه المحسوسات الجزئية يسكنى بها عن شدة السكرم في المدحوحين ،
وارتياحهم إليه وقول الآخر :

خطرات النسيم تخرج خديه وأس الحرير يدمى بقلبه

فإنه بالغ في ذكر هذه المحسوسات كفاية عن رقة جلده وبضاخته ، كما أنه
يفهم بطريق الفحوى أنه مصان متعجب ، وأنه من أهل الترف والنعيم الذين
يلبسون الحرير وما إليه في الرقة ولين الملمس .

٣ - الكفاية تمسكتك من أن تشقى غلتك من خصمك من غير أن تجعل
له سيلاً عليك ، ودون أن تחדش وجه الأدب أو تخرج عن حدود اللياقة والذوق ،
وهذا النوع يسمى بالتعريض . ومثاله قول المتنبي في قصيدة يمدح بها كافوراً ،
ويعرض بسيف الدولة .

رحلت فكم بالك بأجفان شادن	على ، وكم بالك بأجفان ضيفم (١)
وماربة القرط المليح مسكانه	بأجزع من رب الحسام المنصم (٢)
فلو كان ما بي من حبيب مقنع	عذرت ولكن من حبيب معمم
رمى واتقى رمي ومن دوز ما اتقى	هو كاسر كفى وفوسى وأسهى
إذا ساء فعل المرء ساء ظنونه	وصدق ما يعتاده من توهم

(١) الشادن : وله الغزال - والضيفم . الاسد ، أراد بالباكي بأجفان
الشادن المرأة الحسناء . وبالبياكي بأجفان ضيفم الرجل الشجاع . يقول كم من
نساء ورجال بكرأ على فراقى . وجزعوا لارتحالى

(٢) القرط . ما يعلق في شحمة الإذن . والحسام . السيف القاطع . والمنصم
الذى يصيب المفاصل ويقطعها يقول لم تكن المرأة الحسناء بأجزع على فراقى من الرجل
الشجاع .

فإنه كنى عن سيف الدولة ، أولاً : بالحبيب المعجم ، ثم وصفه بالعدو الذى يدعى أنه من شيمة النساء ، ثم لامه على مبادعته بالعدوان ، ثم رماه بالجبن ، لأنه يرمى ، ويتنى الرمي بالاستتار خلف غيره ، على أن المتنبي لا يجازيه على الشر بمثله ، لأنه لا يزال يحمل له بين جوانحه هوى قديماً ، يكسر كفه وقوسه وأسمه ، إذا حاول النضال ، ثم وصفه بأنه سيئ الظن بأصدقائه لأنه سيئ الفعل كثير الأوهام والظنون ، حتى ليظن أن الناس جميعاً مثله فى سوء الفعل ، وضعف الوفاء ، فاظفر كيف نال المتنبي من سيف الدولة هذا النيل كله من غير أن يذكر من اسمه حرفاً .

٤ — إن حسن السكناية أو الإرداف يأتى من طريق المبالغة فى الوصف لأن فى التعبير بهذا الردف أو التابع من القوة والحسن ما ليس فى اللفظ الموضوع لذلك للمعنى . ومن ذلك قول عمر بن أبى ربيعة فى وصف امرأة بطول الجيد :

بعيدة مهوى القرط إما انوفل أبوها ، وإما عبد شمس وهاشم

فلم يذكر طول الجيد بلفظه الخاص به ؛ ولكنه عدل عنه ، وكان فى ذلك من المبالغة والجمال ما ليس فى اللفظ الأصلى ، لأن بعد مهوى القرط أدل على طول أكثر ، لأن كل بعيدة مهوى القرط طويلة الجيد ، وليست كل طويلة الجيد بعيدة مهوى القرط ، إذا كان طول الجيد فى عتقها يسيراً .

ولما أراد امرؤ القيس أن يصف ترف محبوبته ، وأن لها من يكفيها قل :

ويضحى فقيت الممك فوق فراشها تؤم الضحى ، لم تنتطق عن تفضل

فقال : « تؤم الضحى » وأن فقيت الممك يبقى فوق فراشها إلى الضحى ؛ وكذلك سائر البيت ؛ أى هى لا تنتطق اتخدم ؛ ولكنها فى بيتها متفضلة ؛

ومنه قول ليلى الأخيلية :

ومحرق عنه القميص تحاله بين البيوت من الحياء سقيا

أرادت وصفه بالجود والكرم ، فجاءت بالأردف والتوابع إلهما ، أما ما يتبع الجود فذمته بأنه محرق القميص ، لأن العفاة تجذبه فتحرق قميصه من مواصلة جذبهم إياه ، وأما ما يتبع الكرم فالحياء الشديد الذى كأنه من إمانته نفس هذا الموصوف ، وإزالة الأثر عنه ، حتى يخال سقيا ، ومنه قول الحكم الخضرى :

قد كان يعجب بهضهن براعتى حتى سمعن تنحنحن وسعالى

فلم يصف الكبر باللفظ بعينه ، ولكنه أتى بتوابعه ، وهى السعال والتحنحن
 ٥ - بالكناية يستطاع التعبير عن المعانى غير المستحسنة بالأماظ لانعافها
 الأذواق ، ولا تعجها الأذان ، وأمثلة هذا كثيرة فى القرآن الكريم ، الذى لا يحوى إلا العبارة للهدية ، والكلام المذهب السائع . قال ابن فارس : يكنى
 عن الشيء : فيذكر بغير اسمه تحسيفا للفظ ، أو إكراما للذكر ، وذلك كقوله
 جل ثناؤه : « وقالوا الجلودهم لم شهدتم علينا » وقالوا إن الجلود فى هذا
 الموضع كناية عن آراب الإنسان ؛ وكذلك ، قوله جل ثناؤه : « ولسكن
 لأنواعدهن سرا » إنه النكاح ، وكذلك « أوجاء أحد منكم من الغائط » ما
 اطمان من الأرض . كل هذا تحسين للفظ والله جل ثناؤه كريم يكنى ، كما قال
 فى قصة عيسى وأمه عليهما السلام : « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت
 من قبله الرسل وأمة صديقة كانا يا كلان الطعام » كناية عما لا بد لآكل الطعام
 منه (١) .

وحسن الكفاية عما يجب أن يسكنى عنه في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح ، أصل من أصول الفصاحة ، وشرط من شروط البلاغة ، ومن ذلك ما كتب أبو الحسين جعفر بن محمد بن نوابه عن المعتضد بالله إلى خمارويه ، وقد أوصى خمارويه بابتنته التي تزوجها المعتضد بالله ، فكان مما كتب ابن نوابه : « أما الوديعه فهي بمنزلة ما اتقل من يمينك إلى شمالك ، عناية بها ، وحياطة لها » . واستحسنست الكفاية عن الزوجة بالوديعه حتى صار الكتاب يعتمدونها ، وقل بعضهم : إن تسمية إياها بالوديعه نصف البلاغة .

٦ — إن الأسلوب السكزائي ينزع إلى اللغة الطبيعية ، بتمثيل الأشياء بخصائصها ومن ذلك قول أبي نواس :

ولما شربناها ، ودب ديبها إلى موطن الأسرار قلت لها قفى

فإلى أين دب ديب راح أبي نواس ؟ إلى موطن الأسرار ، وما موطن الأسرار ؟ أليس الدماغ ؟ فقد نحى الشاعر إلى إطلاق لفظ ، وإرادة لازم معناه ، وقد دل في ذلك على الشيء بأوصافه ، وفي هذه الدلالة نزوع إلى اللغة الطبيعية التي تمثل الأشياء بتمثيل خصائصها ، ومثله قول وديع البستان في تعريب محاسن الطبيعة : « ولا تبعدوا عن جانبات الشهد المتطائر هنا وهناك تقبل ثغور الأزهار » حيث كنى بجانبات الشهد عن المنحل .

وقول الشاعر :

فارتشف ريق العناقيد بيد ما تقاسى من تباريح السكد

حيث كنى بريق العناقيد عن الخمرة ، وفي ذلك نزوع إلى اللغة الطبيعية .

٧ - إن الكفاية قد تكون طريقاً من طرق الإيجاز والاختصار كقوله تعالى كفاية عن كثير من الأفعال « ولبئس ما كانوا يعملون » وقولهم كفاية عن الجامع لكل شيء : « هو سفينة نوح »

٨ - إنك أنرى في الكفاية من المعجب المعجائب « ومن غريب الصنعة ، ومن بديع السحر إذا كانت في باب الصناعات الخسيسة الخفية بذكر مذاقها كما قيل لحائك :

« ما صناعتك ؟ » قال زينة الأحياء ، وجهاز الموتى ، وقال ابن باقلاني - بائع فول -

أنا ابن الذي لا ينزل الدهر قدره وإن نزلت يوماً فسوف تعود
تري الناس أفواجا إلى ضوء ناره فمنهم قيسام حوله وقعود

الفصل الخامس

السكناية في القرآن الكريم

قبل أن أتحدث عن السكناية في القرآن الكريم ينبغي أن أشير في إيجاز إلى آراء علماء البيان في السكناية في كونها من قبيل الحقيقة أو المجاز، إذ إن بعضهم حين ينكرون وقوع المجاز في القرآن ينكرون وجودها بناء على أنها من المجاز. فأقول مستعيناً بالله وحده طالبا منه العون والتوفيق.

أقد اختلف علماء البيان في السكناية، فمنهم من قال: إنها من باب الحقيقة ومنهم من قال: إنها من باب المجاز، ومنهم من قال: إنها لفظة يتجاوزها جانب الحقيقة والمجاز، ومنهم من لم يحكم فيها بحقيقة ولا مجاز.

فأما من جعلها من باب الحقيقة فهو الإمام عبد القاهر الجرجاني، فقد قال في التعريف بها « والمراد (١) بالسكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يحىء إلى معنى هو تاليه، وردفه (٢) في الوجود، فيسمى به إياه، ويجهله دليلاً عليه. مثال ذلك قولهم: « هو طویل النجاد (٣) » يريدون: طول القامة، و« كثير رماد القدر » يمتنون: كثير القرى، وفي المرأة: « تؤم الضحى » والمراد أنها مترفة مخدومة لها عن يكفيها أمرها، فقد أرادوا في هذا كله - كما ترى - معنى، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود، وأن يكون إذا كان، ألا ترى أن القامة إذا طالت: طال النجاد؟

(١) دلائل الإعجاز الإعجاز ص ٥٢ (٢) الردف بكسر الراء وسكون الدال هو الذي يركب خلف الراكب، وكل شيء تبع شيئاً فهو ردفه. (٣) النجاد ككتاب: ما وقع على العاتق من حائل السيف.

وإذا أكثر القرى : أكثر رماد القدر ؟ وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفئها
أمرها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى ؟ .

وإيضاح ذلك أن لكل تركيب من التراكيب التي ساتها عبد القاهر
معنيين : أحدهما متبوع وهو المعنى السكفائي المراد كطول القائمة - مثلاً - والمتبوع
هو المقصود بالإفادة ، ولم يذكر لفظه ، والتابع - وإن ذكر لفظه - لم يقصد
لذاته ، بل ليكون وسيلة ورمزا إلى متبوعه ، فالمعنى السكفائي عند عبد القاهر
هو المتبوع أو الملزوم ، والمعنى الحقيقي : هو التابع أو اللازم . ومن هنا كانت
السكفائية عند عبد القاهر حقيقة إذ إن الحقيقة لفظ مستعمل فيما وضع له سواء
أكان ما وضع له مقصودا لذاته أم مقصودا لينتقل منه إلى غيره ، والسكفائية من
النوع الثاني ، أي أنها لفظ مستعمل فيما وضع له لينتقل منه إلى غير الموضوع
له ، بحيث يكون غير للموضوع له هو : متعلق الإثبات والنفي ، ومرجع الصدق
والكذب ، وعلى هذا تفارق المجاز من أوسع الأبواب لأنها حقيقة وكفى .

ورأى عبد القاهر هذا رأى حسن ووجيه لمطابقته للواقع إذ الواقع أن
للمعنى الحقيقي لازم وتابع في الوجود للمعنى السكفائي ، لأن القائمة إذا طالت :
طال النجاد ، وإذا أكثر القرى : أكثر رماد القدر ، وإذا كانت المرأة مترفة ،
لها من يكفئها أمرها : ردف ذلك أن تنام إلى الضحى وهكذا .

وقد تبع عبد القاهر في هذا الاتجاه كثير من علماء البيان منهم الفخر الرازي
وأبو بقوب السكاكي ، والشيخ عز الدين بن عبد السلام ، والنويري .

وأما من جعلها من باب المجاز فهو أمير المؤمنين يحيى بن حمزة العلوي فقد قال في كتابه « الطراز » كاشفاً للنقاب عن مغزاتها في البيان العربي : « أعلم أن السكناية واد من أودية البلاغة ، وركن من أركان المجاز » وقد تبعه في هذا الاتجاه كثير من علماء البيان ، واحتجوا بأن تكون السكناية تعبيراً عن معنى لا يذكر بلفظه الموضوع له ، بل بلفظ يدل عليه ، فيعبر به عن ذلك المعنى ، وقالوا : إن المجاز بالسكناية ليس من جهة الأفراد ، بل من جهة التركيب كقوله : « فلان نهاره صائم ، وليله قائم » ، فإن الصيام والقيام حقيقتان ، والليل والنهار حقيقتان ، وإنما نسبة الصوم إلى النهار والقيام إلى الليل هو المجاز (١) وأما من قال : إنها لفظة تجاذبها جانباً حقيقة ومجاز فضياء الدين بن الأثير الجزري (٢) ومن يقول بقوله . واحتجوا على ذلك بقوله تعالى : « أولاً مستم النساء » وقالوا إن ذلك يجوز حمله على الحقيقة والمجاز ، وكل منهما يصح به المعنى ولهذا ذهب الشافعي - رحمه الله - إلى أن اللبس هو مصافحة الجسد للجسد وذهب غيره إلى أن المراد باللبس الجماع ، فقد تجاذب هذه اللفظة جانباً حقيقة ومجاز ، وكذلك قوله تعالى : « إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة » ، ولى نعجة واحدة « فالنعجة يجوز أن يسكنى بها عن المرأة ، ويجوز استعمالها في حقيقتها ، وهى الأثني من النعم (٣) .

وأما من لم يحكم فيها بحقيقة ولا مجاز فالإمام محمد بن سنان الخفاجي ، وأبو هلال العسكري والغامدي ، ومن يقول بقولهم ، واحتجوا على ذلك بأن السكناية عبارة عن ذكر المعنى القبيح باللفظ الحسن ، وهذا لا يجوز أن يكون

(١) جوهر الكنز : لتجسم الدين بن الأثير الخليلي المتوفى سنة ٧٣٧ هـ بتحقيق الدكتور محمد زغلول سلام ص ١٠١

(٢) في المثل السائر ، ونقله صاحب الطراز ص ٣٦٨

(٣) جوهر الكنز ص ١٠٢

عدا ولا رسما ، لأن الحد والرسم لا بد فيهما من اطراد وانعكاس في الحد .
وهذا الحد الذي ذكره لا يطرده ولا ينعكس ، لأنه يقتضى أن كل مالا يكرن
ذكر للمعنى القبيح باللفظ الحسن فلا يكون كناية وليس الأمر كذلك ، فإن
الكناية تقع على المعنى الحسن والمعنى القبيح كقولك : « فلان طويل النجاد » تعنى
بذلك طول قامته ، فهذا اللفظ حسن كنى به عن معنى حسن ، فينتقض عليهم
ذلك الحد . (٤) ،

وأنا أميل إلى رأى الشيخ عبد القاهر الذى يجعل للكناية من قبيل
الحقيقة ، لأنه - كما أشرت قبلا - مطابق للواقع . ، ومن هذا رأى أنطلق إلى
ألى الحديث عن الكناية في القرآن الكريم ، فأقول : إن الكناية موجودة
في القرآن الكريم وأنها فيه من قبيل الحقيقة ، وليست من قبيل المجاز .

ولقد حفل القرآن الكريم بضروب شتى منها ، ففيه الإرداف ، ومنه قوله
تعالى : « وقضى الأمر » وحقيقة ذلك ، وهلك من قضى الله هلاكه ، ونجا من
قضى نجاته ، وعدل عن الحقيقة للدلالة والتنبيه على ذلك بأمر مطاع لا يرد قضاؤه

ومنه قوله تعالى : « فيهن قاصرات الطرف » أى عفيفات ، قد قصرت
عفتن طرفهن في بعولتهن ، وعدل عن المعنى الخاص الى لفظ الإرداف ؛ لأن
كل من عف غض الطرف عن مطموح ، فقد يمتد نظر الإنسان الى شئ . ،
وتشبهه نفسه ؛ وبعبارة مع القدرة عليه ، لأمر أمر ، وقصر طرف المرأة على
بعلها ، أو قصر طرفها حياء وخفرا أمر زائد على العفة ، لأن من لا يطمح طرفها
لغير بعلها ؛ أو لا يطمح حياء وخفرا ، فإنها ضرورة تكون عفيفة ، وليست
كل عفيفة قاصرة الطرف ، فلذلك عدل عن اللفظ الخاص الى الإرداف .

وفيه الإشارة كقوله تعالى : « وغيض الماء : » فإن غيض الماء يشير إلى

« انقطاع مادة الماء من نبع الأرض ، ومطر السماء ، ولولا ذلك لما غاص الماء ، ومنها أيضاً قوله تعالى : « وفيها ما تشبهه الأنفس ، وتلذ الأعين » فقيه إشارة إلى كل ما تميل إليه النفس من الشهوات التي لا تنحصر ، وتلذ الأعين من الرغبات التي لا تنضب ، لنعلم أن هذا اللفظ القليل قد دل على معان لا تنحصر عدا ، ومنها قوله تعالى : « وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر » فانظر إلى ما أشارت إليه لفظة « الأمر » من ابتداء نبوة موسى - عليه السلام - وخطاب الحق له ، وإعطائه الآيات اليبينات من إلقاء العصا لتصير ثعباناً ، وإخراج يده بيضاء ، وإرساله إلى فرعون ، وسؤاله شد عضده بأخيه هارون إلى جميع ما جرى في ذلك المقام ... كل ذلك أشارت إليه هذه اللفظة الواحدة .

وفيه الرمز والإيماء كقوله تعالى : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم ، وهم أوف » فقد أشارت كلمة « أوف » إلى العدد - فقد روى بعض العلماء أنهم كانوا أربعة آلاف ، وروى من طريق آخر أنهم كانوا ثلاثين ألفاً ، وصحح العلماء الرواية الثانية بقوله تعالى : « أوف » فجمعها جمع الكثرة ، ولو كانت الرواية الأولى أصح لمقال سبحانه . آلاف ، ولم يقل : أوف ولا شك أن الذي صور هذا المعنى هو اللفظ الذي رمز به إلى العدد .

وفيه التمثيل كقوله تعالى : « واستوت على الجودي » فإن حقيقة ذلك ، « وجلست على هذا المكان ، فعدل عن الحقيقة إلى التمثيل لما في الاستواء من الإشعار بجلوس متمكن لا زرع فيه ولا ميل ، ولا حركة معه ولا اضطراب ، فإن هذا الجلوس تسكن معه قلوب أهل السفينة لسكونها ، ولا تسكن إلا بهذا الجلوس المنعوت بالاستواء ، وبذلك يحصل تمام الأمن ، وبكال الظلمة أئينة ، ولا يحصل ذلك من قولنا : جلست ، ولا ما يدل على معناه فقط ، فلذلك عدل عن لفظ الحقيقة إلى التمثيل ، وما كان ذلك إلا لحسن التصوير وجمال التعمير .

وفيه التعريض (١) كقوله تعالى : « قالوا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم »
قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » فقول ابراهيم : « فاسألوهم
إن كانوا ينطقون » تعريض بجعلهم ، وضعف عقولهم ، فكأنه يقول لهم :
كيف تعبدون من لا يجيب إن سئل ، ولا ينطق إن كلم ، وتعملونه شريكا لمن
له الخلق والأمر ؟

كذلك توجد في القرآن الكريم شواهد لأقسام السكناية المصطلح عليها عند
علماء البيان وهي : السكناية المطلوب بها صفة ، والسكناية المطلوب بها موصوف
والسكناية المطلوب بها نسبة . فمن السكناية عن الصفة قوله تعالى إلا متحرفا
لقتال أو متحيزا إلى فئة » حيث كنى بالتحيز عن الهزيمة ، وقوله تعالى :
وثيابك فطهر » كفاية عن عفة النفس وطهارة الذليل .

ومن السكناية عن الموصوف قوله تعالى : « وحملناه على ذات ألواح ودسر »
فقد كنى بالواح ودسر » عن السفينة ، لأن مجموع الأمرين مجتمعين وصف
مختص بالسفينة ، وقوله تعالى : « كأنهن بيض مكنون » كناية عن حرائر
النساء ، فإن العرب كانت من عاداتها السكناية عن حرائر النساء بالبيض ،
قال امرؤ القيس :

وبيضه خدر لا يرام خباؤها تمتعت من طوبى بها غير معجل

وقوله تعالى : « أو من ينشأ في الحلية ، وهو في الخصام غير مبين » فإنه
سبحانه كنى عن النساء بأنهن ينشأن في الترف والتزين والتشاغل عن النظر
في الأمور ، ودقيق المعاني .

ومن السكناية عن النسبة قوله تعالى : « ليس كمثل شيء » بناء على الراجح

(١) ذكرت هذا بناء على أن أكثر علماء البيان يجعلون التعريض نوعا من أنواع
السكناية ، وصورة من صورها .

من جمل السكاف أصلية لا زائدة ، وحينئذ يكون كناية عن نفى مثله تعالى ،
إذا لو كان له مثل لكان هو سبحانه : مثل مثله ، والله سبحانه موجود قطعاً ،
حنفى مثل المثل حينئذ يودى إلى نفيه سبحانه وهو باطل .

وحينئذ لا فرق بين قولك : « ليس كلفه شيء » وقولك : « ليس كذلك
شيء » إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها ، وهى المبالغة فى نفى المماثلة عن ذاته
تعالى . . . وذلك هو شأن الكناية دائماً .

السرفى عظمة الكناية وجهالها فى القرآن الكريم

إنك إذا تأملت الأسلوب الكنائى فى القرآن ، - وكنت من أرباب
الفصاحة والبيان - ، أدركت أنه فوق طاقة بنى الإنسان ، وأنه فيه من روعة
التعبير ، وجمال التصدير ، وألوان الأدب والتأليف ما لا يستقل به بيان ،
ولا يدركه إلا من تذوق حلاوة القرآن ، وأنه ينطوى تحته لطائف وأسرار ،
لا يصل إلى مكنونها إلا من منج ذوقاً رقيقاً ، يدرك ما احتجب خلف الأستار
من الأمرار ، وأن فيه من السحر الخلال ما يبهى المهرة من صنائع الكلام ،
ومن هنا تظهر عظمة الأسلوب الكنائى فى القرآن ، ويتضح جهال الخلاب ،
وحسنه الفنان ، وتأثيره القذى لا يدانيه تأثير . ونستطيع أن نجمل السرفى
عظمته وجهالها فيما يلى :

١ - الكناية فى القرآن تمتاز بالإيجاز اللطيف المجيب القذى لا يستطيع
محاكاة أرباب الفصاحة والبيان من بنى الإنسان . فمن ذلك قولك قواه تعالى :
« نسأؤكم حرث لكم » (١) لقد كنى القرآن الكريم فى هذه الآية بكلمة
« الحرث » عن « المعاشرة الزوجية » وهذا اللفظ فضلاً عما فيه من الأدب ووثيق

الصلة بالمعاشرة الزوجية ، وتنطوي تحته من أن كثيرة تحتاج في التمييز عنها إلى آلاف الكلمات . انظر إلى ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرقه ، وصلة الزوج بزوجه في هذا المجال الخاص ، وبين ذلك الثبت الذي يخرج الحرق ، وذلك الثبت الذي يخرج الزوج ، وما في كليهما من تكثير وعمران وفلاح ، كل هذه الصور والمعاني تنطوي تحت كلمة « الحرق » التي كنى بها القرآن عن المعاشرة الزوجية (١) ، فهل هذه الكناية يستطيع أن يحاكيها بنو الإنسان مهما أوتوا من الفصاحة والبيان ؟ إنها حقاً لا توجد إلا في القرآن ولا تصدر إلا عن خالق الإنسان وعلمه البيان .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « ثبت بدا أبي (٢) لب وتب » فهذه كناية عن أنه جهنمي وأن مصيره إلى اللهب . انظر إلى هذه الكناية ، وما فيها من الإيجاز اللطيف المعجيب الذي تنعني لمقامته جباه أصحابين البيان ، لقد اختصرت مقدمات لا أهمية لها بالتنبيه على النتيجة الحاسمة التي يتقرر فيها المصير ، فتلخصت في ومضة واحد هذا المصير الذي يراد تصويره .

٢ — الكناية في القرآن تمتاز بحال التعبير ، فهي مؤدبة ، مهذبة وأنها في هذا الميدان قد حازت قصب السبق ، وترى على عرش الجمال ، وعجز عن إدراك شأوها صفوة فرسان البيان بعد أن ذابت نفوسهم تأثراً بما فيها من الروعة والسحر الخلال :

ومن ذلك قوله تعالى : « ولستكن لا نواعدوهن سرا » (٣) فقد كنى القرآن الكريم في هذه الآية عن الجماع بالسر . تأمل هذه الكناية ، ومدى ما فيها من اللطائف والأنوار والأسرار . إن في الكناية بالسر عن الجماع من ألوان

(١) التصوير الفني في القرآن للمرحوم سيد قطب ص ٧٨

(٢) المسد :

(٣) البقرة : ٢٢٥

الأدب والتعذيب ، ما يعجز عن وصفه أساطين البيان ، وفيها من جمال التعبير ما يسترق الاسماع ، ويهز العواطف ، ويحرك الأحاسيس والشاعر . لقد أبست الجماع الذي يتم في السر ثوب السر فذهبت بسر الفصاحة والبيان ، أبعد هذا يقال : إن السكناية في القرآن يستطيع أن يحاكيها فرسان البيان ؟ أبداً والله أعلم من المعجز بحيث لا يمكنهم فهم ما تنطوى عليه السكناية في القرآن من الأسرار (١) .

ومن ذلك قوله تعالى : « والذين هم لقروجهم (٢) حافظون » وقوله تعالى « والحافظين (٣) قروجهم والحافظات » فقد كى القرآن في الآيتين (٤) بالفروج عن العفة وطهارة الذيل ، فما تفرج ثياب المؤمنين عن ريبة ، ولا تتكشف دروع المؤمنات عن منكر ، بل المؤمنون والمؤمنات فقية ثيابهم طاهرة أذياهم عفيفة نفوسهم . وقوله تعالى : « ومريم ابنة عمران التي أحصت فرجها فنفخنا فيه من روحنا (٥) »

فإحصانها فرجها كناية عن طهارة ذيلها وعفتها الكاملة ، وكان النفع في جيب درعها كما ورد في كتب التفسير .

إن في السكناية بالفروج «فروج القمصان والثياب» عن عفة النفس وطهارة الذيل من روعة التعبير وجمال التصوير ، وألوان الأدب والتعذيب ما لا يستقل به بيان ، ولا يدركه إلا من تذوق حلاوة القرآن .

٣ - الأسلوب السكناي في القرآن يمتاز بحسن التصوير ، وقوة التأثير ،

(١) انظر ص ١١٠ من كتابنا والإعجاز في نظم القرآن ،

(٢) المؤمنون : ٥ (٣) الأحزاب : ٣٥

(٤) المراد بالفروج في الآيتين فروج القمصان والثياب على حد قوله تعالى

« وثيابك فطهر كناية عن العفة وطهارة الذيل وانظر البرهان للزركشي ص ٣٤ ص ٣٥ ،

ومجازات القرآن للشرif الرضى ص ٣٥٣ ، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ١٠٧ ،

(٥) التحريم : ١٢

فهو يوضح المعاني بالمبالغات الحسنة الساحرة ، فيقرب الفكرة المجردة من الصورة الحسية ، فتستحيل المبالغة فيه بلاغة ، ويصير التهويل فيه تخييلا . فمن ذلك قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتعمد ملوما محسورا ^(١) » ألا ترى أن التعبير عن البخل باليد المغلولة إلى العنق ، فيه تصوير محسوس لهذه الحالة المذمومة في صورة بغیضة منفرة ؟ فهذه اليد التي غلت إلى العنق ، لا تستطيع أن تمتد ؛ وهو بذلك يرسم صورة البخل الذي لا يستطيع يده أن تمتد بإفناق ولا عطية ، والتعبير ببسطها كل البسط ، يصور هذا المبذر الذي لا يبقى من ماله على شيء كهذا الذي يبسط يده فلا يبقى بها شيء ، وهكذا استطاعت السكناية أن تنقل المعنى قويا مؤثرا ^(٢) .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : « بأبيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا نجسسوا ولا نغتب بمضكم بعضا ، أيجب أحداكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ^(٣) ... »

انظر كيف مثلت الآية الغيبة بأكل لحم الإنسان ، ولما كان أي إنسان ؟ لأنه أخ ، وإن المغتاب يأكل لحم أخيه ، وأي أخ هذا ؟ لأنه الأخ الميت الذي تقسخ لحمه ، وفاحت روائح ، وكان للدود منه نصيب ، ومن يستطيع أن يقبل على أكل لحم إنسان أخ ميت متفسخ ؟

هذا الاقتياب ذكر مساوئ الناس ، وتمزيق لأعراضهم ، ونهش لسمعتهم وغض لفضائلهم ، لا في وجوههم ، ولا بين أيديهم ، وإنما من وراء ظهورهم ، لأنه فعل الجبناء الضعفاء الذين لا يظهرون قوتهم إلا في الخلاء ، وعند فراع الساحة من الرجال ، وهؤلاء الذين يقتابون الناس مثلهم كمثل القافمين الذين

(١) الإسراء : ٢٩ (٢) من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوي ص ٢٢٦

(٣) الحجرات : ١٢

ينتظرون موت الإنسان ، ليسكون بلا عقل ولا حس ولا حياة لينهمشوا لحمه ، وإن كان نتنا ، ذلك لأنهم لم يمتادوا الأطايب في الحياة ، وإنما استساغوا الأقدار والأبتان . ألا تحس بروعة السكناية القرآنية ، وجمال تصويرها ، وحسن أدائها وقوة تأثيرها ؟

ومن ذلك أيضا قوله تعالى . « فانقوا النار التي وقودها (١) الناس والحجارة »

فقد كنى القرآن بهذه الآية عن عدم العناد عند ظهور المعجزة . أي لا تعاندوا عند ظهور المعجزة فتبسمكم هذه النار العظيمة . تأمل هذه السكناية ، ومدى ما فيها من جمال التعبير وروعة التصوير ، وقوة التأثير ، إنها عبرت عن العناد عند ظهور المعجزة بالنار العظيمة ، وهذا التعبير فيه ما فيه من شدة التنفير وقوة التأثير ثم إن هذا التعبير قد أبرز لك هذا المعنى الفكري المجرد في صورة محسنة ملموسة ، ولم يقف عنده هذا الخدم التجسيم والتشخيص ، بل تعداه إلى التصيير والتحويل فحواله إلى نار ملتهبة متأججة مقوهجة . أرايت أعجب من هذا التصوير ، ولا أروع وألذ من هذا التعبير (٢) ؟ إنها السكناية القرآنية تبهرك بجمالها ، وتأمرك بسحر بيانها ، وتعجزك عن محاكاتها .

ومن هذا القبيل السكناية عن الشئون الغيبية بالمفاتيح في قوله تعالى : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو (٣) » والسكناية عن أزلية الأرزاق والمقدرات بالخزائن في قوله تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر (٤) معلوم »

(١) البقرة : ٢٤ .

(٢) انظر ص ١٠٩ من كتابنا « الاعجاز في نظم القرآن »

(٣) الأنعام : ٥٩ (٤) الحجر : ٢١

٤ - السكناية في القرآن تمتاز بنظمها البديع ، وتأليفها الفريد ، فمعناها لا يؤدي بغير لفظها ، ولفظها لا يصلح إلا معناها ، حتى لتكاد تصعب التفرقة بينهما ، فلا يدري أيهما التابع ؟ وأيهما المتبوع ؟ وهي من هذه الفاحية ، تملن مظاهر الإعجاز في القرآن .

ومن هذا القبيل قوله تعالى : « ما المسيح ابن مريم (١) إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يا كلان الطعام » فقوله : كانا يا كلان الطعام » كفاية عن « قضاء الحاجة » تأمل هذه السكناية ، وما فيها من دقة التعبير ، وجمال الصياغة ، وبديع النظم ، ثم حدثني بربك هل يمكن أن تؤدي هذه السكناية بغير لفظها ؟ وهل لفظها يصلح لغير معناها : أبدا والله لمن الترابط بينهما وثيق ، وإن الانسجام بينهما قوى ، وإن التآلف بينهما محكم وعميق ، فالأقول لا بد من صيرورته إلى العذرة .

ومن هذا القبيل أيضا قوله تعالى : « أو من (٢) ينشأ في الحلية وهو انحصام غير مبين » كفاية عن « النساء » إن هذه الألفاظ القرآنية لا تصلح إلا للسكناية بها عن النساء ، وإن النساء لا يكتفى عنهن في هذا المقام إلا بهذه الألفاظ فالنساء ينشأن في الترف والترزين والتشاغل عن النظر في الأمور ، ودقيق المعاني ، أرايت أجمل من هذه الصياغة ، ولا أمتع من هذا التعبير ، ولا أذل من هذا التصوير ؟

ومن هذا القبيل أيضا ، السكناية بالمرادة عن طلاب الجماع في قوله تعالى : « وراودته (٣) التي هو في بيتها عن نفسه » والسكناية عن المعانقة باللباس في قوله تعالى : « هن لباس لكم (٤) وأنتم لباس لهن » ، والسكناية عن البول ونحوه بالعائظ في قوله تعالى : « أو جاء أحد منكم من العائظ (٥) » والسكناية عن الاستاء بالأديار في قوله تعالى : « يضربون وجوههم وأدبارهم »

(١) المائدة : ٧٥ (١) الزخرف : ٧٥ (٢) يونس : ٢٣

(٤) البقرة : ١٨٧ (٤) النساء : ٦

خاتمة

لقد قمت في هذا البحث بدراسة الكناية في مؤلفات القدماء والمحدثين من علماء البيان العربي ، ثم كشفت النقاب عن أسرارها البلاغية ، ثم بحثت عنها في رياض القرآن الكريم ، متتبعا شواهدا ، مزيجا الستار عن بعض محاسنها ومفاتيحها . ثم أمطت اللثام عن أسباب عظمتها وجمالها في هذا الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ثم توصلت في نهاية المطاف إلى النتائج الآتية : —

١ — عرفت الكفاية كصورة بيانية عامة في النصف الأخير من القرن الثاني الهجري على يد أبي عبيدة معمر بن المثنى ، فقد أراد منها ستر المعنى وراء أى لفظ آخر غير اللفظ الأصلي .

٢ — ظلت عامة ، ودون تعريف يميزها عن غيرها من الصور البيانية حتى أواخر القرن الثالث الهجري .

٣ — بدأت في التميز والاستقلال عن غيرها في بداية القرن الرابع الهجري على يد قدامة بن جعفر السكاتب ، فهو أول من وضع لها تعريفا ، يميزها عن غيرها من صور البيان العربي .

٤ — وضعت سماتها ، وتحددت معالمها ، واستقلت عما عداها ، وظهرت محاسنها في النصف الأخير من القرن الخامس الهجري على يد الإمام عبد القاهر الجرجاني ، فقد عرفها ، وبين مزيقتها على التصريح ، وكشف النقاب عن محاسنها ووضع شروطا لحسنها :

٥ - تميزت تميزاً تاماً ، واستقلت استقلالاً كاملاً ، ولبت ثوباً قائماً من
 «الفلسفة والمنطق في بداية القرن السابع الهجري على يد الإمام أبي يعقوب السكاكي ،
 فقد عرفها ، وعلل لتسميتها ، وفرق بينها وبين المجاز ، ثم ذكر أقسامها ،
 وأنواعها بطريقة فلسفية منطقية ، تكاد الذهن ، وترهق الفكر ، ولا تتلاءم مع
 جمال هذه الصورة البيانية ولطافتها .

٦ - لبت ثوباً من السحر والفتنة ، واتسعت دائرة البحث فيها ، فتخطت
 حدود اللغة العربية إلى غيرها من اللغات الأخرى كالسريانية والفارسية في
 النصف الأول من القرن السابع الهجري على يد الأديب الكبير ضياء الدين
 ابن الأثير ، قد اعتمد في دراستها على ذوقه وحسه ، فأكثر من شواهدا
 الأدبية ، وخرجها تخريجا حسنا ، وحللها تحليلا جميلا ، ولم يكتف بدراستها
 في اللغة العربية ، كما فعل غيره من العلماء السابقين ، بل تعدى هذا إلى دراستها
 في اللغة السريانية والفارسية .

٧ - بدأ البحث عنها في القرآن الكريم في أواخر النصف الأول من
 القرن السابع الهجري على يد الأديب المصري الكبير ابن أبي الإصبع المصري
 فقد كشف عن فوائدها في القرآن بطريقة أدبية فريدة لم يسبق إليها ، وبأسلوب
 يتلاءم مع طبيعتها ، ويتناسب مع جمالها ولطافتها .

٨ - خلعت رداء حسنها وجمالها ، وذبلت زهرتها ، وانزوى عودها ،
 ودخلت في دائرة الفلسفة والمنطق مرة أخرى في النصف الأول من القرن الثامن
 الهجري على يد العالوي ، فقد تتبع تعريفاتها السابقة بالنقد والتحليل معتمدا
 في ذلك على عقله ، وثقافته المنطقية .

- ٩ - انعم للبحث عنها في القرآن الكريم في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري على يد الزركشي ، فقد كشف عن أسبابها في القرآن بأسلوب أدبي رائع ، وبطريقة سهلة ميسورة ، لا تكدر الذهن ، ولا ترهق الفكر ، وقد أكثر من شواهد القرآنية ، مبينا موضع السكناية في كل شاهد منها .
- ١٠ - لم تظهر أسرارها البلاغية بوضوح إلا في العصر الحديث ، وبخاصة على يد المرحوم الشيخ علي الجارم ، والأستاذ مصطفى أمين ، والله كتور أحمد بدوي ، والد كتور بدوي طبانة .
- ١١ - إن القرآن الكريم قد اشتمل على معظم شواهد التقسيمات السكناية المصطلح عليها عند المتأخرين من علماء البلاغة .
- ١٢ - لقد تميزت السكناية في القرآن الكريم بطائفة من الخصائص كانت السر في عظمتها ، والسبب في خلودها .

هذا جهدي في دراسة الأسلوب السكناي قد سجدت في هذه الصفحات ، فإن أكن قد وفقت ، فذلك الفضل من الله ، وإن كنت قد قصرت في بعض الجوانب أو جانبتي الصواب ؛ فأنا بشر والبشر دينهم التقصير ، وفي طيهم الخطأ ، والله الكريم أسأل أن يجعل هذه الدراسات خالصة لوجهه الكريم ، وأن يحمنا من طلاب العلم العاملين ، وأن يهيئ لنا الأسباب الموصلة إلى تحصيله ، وأن يعيننا على استيعابه والعمل به إنه سميع مجيب وهو حسبي ونعم الوكيل ؟ وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الله كتور

محمود السيد شيخون

الأستاذ المساعد في الجامعة الإسلامية

بالمدينة المنورة

فهرس الموضوعات

من ص	تمهيد :
إلى ص	مقدمة
٦ - ٦٠	الفصل الأول : الكفاية في القديم
٦١ - ٦٩	الفصل الثاني : الكفاية في العصر الحديث
٧٠ - ٨٦	الفصل الثالث : صور الأسلوب الكفائي
٨٧ - ٩٤	الفصل الرابع : الأثر البلاغي للأسلوب الكفائي
٩٥ - ١٠٧	الفصل الخامس : الأسلوب الكفائي في القرآن الكريم
١٠٨ - ١١٠	الخاتمة : أثبت فيها النتائج التي انتهت إليها في بحثي هذا
١١١ - ١١٢	فهرس المراجع

فهرس المراجع

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - أسرار البلاغة - عبد القاهر الجرجاني ط المثار سنة ١٩٤٧ م
- ٣ - أسس النقد الأدبي - أحمد أحمد بدوى الطبعة الثانية
- ٤ - الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع الجاز - عز الدين بن عبد السلام ط الأستانة سنة ١٣١٣ هـ
- ٥ - الإعجاز في نظم القرآن - الدكتور / محمود السيد شيخون ط القاهرة سنة ١٣٩٧ هـ
- ٦ - الإيضاح - الخطيب القزويني ط القاهرة سنة ١٩٥٠ م
- ٧ - البديع - ابن المعتز ط القاهرة سنة ١٩٤٥ م
- ٨ - بديع القرآن - ابن أبي الإصبع المصري ط القاهرة سنة ١٩٥٧ م
- ٩ - البرهان في علوم القرآن - الزركشي ط القاهرة سنة ١٩٥٥ م
- ١٠ - البلاغة الواضحة - علي الجارم ، ومصطفى أمين ط القاهرة سنة ١٣٨٣ هـ
- ١١ - البيان والتبيين - الجاحظ ط القاهرة سنة ١٩٤٨ م
- ١٢ - تأويل مشكل القرآن - ابن قتيبة ط القاهرة سنة ١٩٥٤ م
- ١٣ - التبيان في علوم القرآن - محمد الصابوني ط بيروت سنة ١٩٦٤ م
- ١٤ - تحرير التعبير - ابن أبي الأصبع المصري ط القاهرة سنة ١٩٦٤ م
- ١٥ - التصوير الفني في القرآن - المرحوم سيد قطب ط القاهرة سنة ١٩٦٦ م
- ١٦ - الجامع الكبير - ضياء الدين بن الأثير - ط بغداد سنة ١٩٥٦ م

١٧ - جواهر السكز - نجم الدين بن الأثير الحلبي ط القاهرة تحقيق الدكتور زغلول سلام

١٨ - جواهر البلاغة - أحمد الهاشمي : ط القاهرة سنة ١٩٤٠ م

١٩ - خزانة الأدب - ابن حجة الحموي : ط القاهرة سنة ١٩٠٤ م

٢٠ - دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني : ط القاهرة سنة ١٣٣١ هـ

٢١ - سر الفصاحة - ابن سنان الخفاجي : ط القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ

٢٢ - الصاحي - ابن فارس : ط القاهرة سنة ١٩١٠ م

٢٣ - الصناعتين - أبو هلال العسكري : ط القاهرة سنة ١٩٥٢ م

٢٤ - الطراز - يحيى العلوي - ط المقتطف سنة ١٩١٤ م

٢٥ - علم البيان - الدكتور بدوي طبانة : ط القاهرة سنة ١٩٦٢ م

٢٦ - علوم البلاغة - أحمد المراغي : ط القاهرة سنة ١٩١٧ م

٢٧ - العمدة - ابن رشيق : ط القاهرة سنة ١٣٠٧ م

٢٨ - الكامل - المبرد : ط القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ

٢٩ - لسان العرب - ابن منظور - ط القاهرة سنة ١٣٠٧ هـ

٣٠ - الملل السائر - ابن الأثير ط . القاهرة ١٩٦٣ م .

٣١ - مجاز القرآن - أبو عبيدة معمر بن المثنى : ط الخانجي سنة ١٩٥٤ م

٣٢ - مختار الصحاح - الرازي - ط القاهرة سنة ١٩٢٢ م

٣٣ - مفاتيح العلوم - السكاكي - ط القاهرة سنة ١٣١٧ هـ

٣٤ - من بلاغة القرآن - المرحوم الدكتور أحمد بدوي : ط القاهرة سنة ١٩٥٠ م

٣٥ - نقد الشعر - قدامة بن جعفر الكاتب : ط الجوائب سنة ١٣٠٢ هـ

٣٦ - نهاية الأرب - النويري : ط دار الكتب المصرية .

٣٧ - نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز - الرازي : ط القاهرة سنة ١٣٢٧ هـ

٣٨ - الوسيلة الأدبية - حسين المرصفي : ط القاهرة سنة ١٣٨٩ هـ

